

سلسلة الدراسات التاريخية (13)

فظائع الدفتردار في السودان

(1821 - 1824م)

حاتم الصديق محمد أحمد

الطبعة الأولى - 2023

سلسلة الدراسات التاريخية (13)

فظائع الدفتردار في السودان
(1821 - 1824م)

حاتم الصديق محمد أحمد

الطبعة الأولى - 2023

اســم الكــتاب:

فظائع الدفتردار في السودان

(1824-1821م)

الـمؤلــف:

حاتم الصديق محمد أحمد

الايداع القانوني:

1056/2022م

الناشـــــر:

دار آريثيريا للنشر والتوزيع - الخرطوم - السودان

جوال: -00249122094856 121566207

البريـــد الإلكترونـي:

arithriaforpublishing@gmail.com

تاريخ النشر :

الطبعة الأولى 2023م

بسم الله الرحمن الرحيم

فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ

صدق الله العظيم

الشورى الآية (٤٠)

إهداء

إلى كل سوداني حمل هذا الوطن في حدقات العيون وبذل من أجله الغالي والنفيس.

إلى أبناء الشعب السوداني الذين ضحوا بأرواحهم ودمائهم عبر الحقب التاريخية المختلفة من أجل وطن يسع الجميع..

شكر وتقدير

أتقدم بخالص الشكر وعظيم الامتنان والتقدير لكل من أسهم في أن يرى هذا العمل النور.

الفهـــــــرس

تقديـــــــم
(1)

يتفق معظم المهتمين بالدراسات السودانية على أن الحداثة في السودان بدأت بسيطرة حاكم مصر محمد علي باشا 1805- 1848م عليه عام (1820م)، وأن أدوات تلك الحداثة فيه آنئذ كانت ثلاث هي: القوارب والتلغراف والأسلحة النارية.

ويقسم تاريخ السودان الحديث إلى ثلاث فترات رئيسة وهي: العهد التركي المصري (1821-1885م) وفترة المهدية (1885-1898م) والحكم الثنائي الانجليزي- المصري (1898-1956م). على أن البحوث العلمية ركزت على فترتي المهدية والحكم الثنائي لأسباب قد تعود إلى توفر الوثائق عنهما في دار الوثائق المركزية بالخرطوم، بينما قلت الدراسات والبحوث العلمية نسبياً المتعلقة بالحكم التركي-المصري في السودان ومرد ذلك وجود معظم وثائق هذه الحقبة التاريخية خارج السودان خاصةً في جمهورية مصر العربية، ولذلك فاننا نحمد للأستاذ الدكتور حاتم الصديق محمد أحمد، أستاذ التاريخ الحديث بجامعة الأزهري ومدير مركز دراسات وبحوث دول حوض البحر الأحمر إهتمامه في هذا الكتاب المميز بموضوع المقاومة السودانية لهذا الحكم، خاصةً حملات الدفتردار الانتقامية، التي نظمها وقادها محمد خالد خسرو بك، المشهور بالدفتردار، إنتقاما من حريق ومقتل قائد حملة الغزو إسماعيل بن محمد علي باشا.وكما أشار الباحث في هذه الدراسة، فان الملك نمر، زعيم قبيلة الجعليين، كان العقل المدبر لهذه الانتفاضة التي شاركت فيها قطاعات واسعة من هذه القبيلة خاصة والسودانيين عامة في مناطق متعددة في شمال وشرق السودان

احتجاجاً على الضرائب الباهظة التي فرضها عليهم الغزاة والطرق الوحشية التي اتبعوها في جمعها.

هذه الدراسة تعد من الدراسات الهامة وتزيد من معلوماتنا عن موضوع بحثها، كما أنها تشكل إضافة قيمة للمكتبة السودانية بل وللعالمية إذ أن بعض الباحثين الأجانب ممن اجادوا العربية أو الموا بها الماماً معقولاً قد أسهموا في إثراء الدراسات السودانية. وآمل أن يبادر أحد هؤلاء أو نفر منهم بترجمة هذا الكتاب إلى اللغة الانجليزية وربما للغات أخرى حتي تعم الفائدة .

حسن أحمد إبراهيم

القاهرة – 2023م

تقديـــــم
(2)

هناك الكثير من الموضوعات في تاريخ السودان وخاصة في تاريخ السودان الحديث تبدو في ظاهرها وكأنها مسلمات من كثرة تكرارها وتداولها، ولكنها في الحقيقة تحتاج إلى الكثير من الدراسة والتحليل وإلي نظرة نقدية وفق منهج تشكيكي، وقليلون من المؤرخين السودانيين من يهتم لمثل هذه الموضوعات والتصدى لها برؤية مغايرة وجديدة لما هو مكتوب تقفز فوق هذه المسلمات؛ ومن هولاء القلائل العالم الشاب الأستاذ الدكتور/ حاتم الصديق محمد أحمد مدير مركز بحوث ودراسات دول حوض البحر الأحمر واستاذ التاريخ بجامعة الزعيم الأزهري بالسودان. ولعلي هنا أكون صادقا إن شهدت له من خلال عشرتي له ومعيته في العمل بمركز بحوث ودراسات دول حوض البحر الأحمر بالجهد والمثابرة والقدرة الإدارية والعلمية العالية التى أهلته بأن يكون في مصاف العلماء والباحثين والأكاديميين المرموقين رغم حداثة سنه وهو يعتبر من أصغر الأكاديميين الذين نالوا درجة الأستاذية في بداية العقد الرابع من أعمارهم . يشهد على ذلك غزارة إنتاجه العلمي وحتى بعد نيله لهذه الدرجة العلمية نشر العديد من الدراسات والبحوث منها هذه الدراسة .

إن هذا الكتاب الذى بين أيدينا وعنوانه (فظائع الدفتردار فى السوان) يعبر بصورة كبيرة على فحواه وقد كنت متابعا لهذا الجهد العلمي منذ أن كانت فكرة ثم تطورت إلى هذه الدراسة المهمة في مادتها، وتميزها بمنهج التقصي الدقيق لموضوع محدد كانت نتيجتها توفر مادة معقولة جعلت من الميسور لكل قارىء لها إعادة

النظر في القراءة الإنطباعية التى رسخت في الأذهان حول أن الجرائم التي إرتكبها الدفتردار والتي ترقي إلي درجة الإبادة الجماعية المنظمة في مناطق عديدة ومختلفة في السودان، وتم تصويرها كأنها كانت ردة فعل وانتقام لحادثة حرق قائد الحملة إسماعيل بن محمد على باشا في شندى ولكنها كانت مخططة وشملت العديد من مناطق السودان . وقد وصف الكاتب هذه الفترة بأنها من أشد الفترات التاريخية قسوة على السودان والسودانيين.

من جانب آخر فإن هذه الدراسة تفتح الكثير من الأسئلة الجديدة حول عملية الغزو الألباني التركي وعمليات المقاومة لها وأبعادها الإقليمية والدولية.

وتدعو إلى مراجعة وتقييم الفترة التى استغرقتها عملية الغزو وتجاوزت ثلاثة أعوام وتصوير أن مملكة الفونج والكيانات السياسية التابعة لها أو المستقلة كأنها كانت لقمة سائغة وتمت عملية الغزو بسهولة ويسر دون مقاومة تذكر ،وفي فترة زمنية وجيزة.

من الإضاءات المهمة في هذا الكتاب تسليط الضوء على شخصية الدفتردار المثيرة للجدل. وفي تقديرنا أن أي شخصية قيادية لها تأثير كبير على مجريات الأحداث السياسية والاجتماعية والاقتصادية في إطارها الجغرافي. كما أن الكتاب تناول التأثيرات الإقليمية والدولية على الأوضاع في السودان. ومعلوم أن أحد دارسى التاريخ السوداني يركزون على الأوضاع الداخلية دون الإهتمام اللازم بالدور الإقليمي والدولي كأن السودان جزيرة منعزلة.

وفي ختام هذا التقديم الموجز الذى أمل أن يكون قد غطى الجوانب المطروحة في الكتاب. وأن تحفز الباحثين لمزيد من الدراسات.

عوض أحمد حسين شبا
مركز بحوث ودراسات دول حوض البحر الأحمر
السودان

تقـديـــــم
(3)
كتاب (فظائع الدفتردار في السودان 1821-1824م)

هذا الكتاب الذي يمثل بين يدي قرائه الآن، يختص بمائزةٍ تحمله الى رحاب الفرادة في مبحثه ومحتواه. وحسناً فعل البروفيسور حاتم الصديق حينما اقترب من أغوار ذلك التاريخ السحيق سبراً بميسم المؤرخ الحصيف الذي استدعى أدواته العلمية لفك طلاسم حملة الدفتردار الانتقامية الجائرة ومقاتلها المفتوحة التي أعملتها في جموع السودانيين ترويعاً وفتكاً وسبياً للأهالي المدنيين الآمنين.

وكدأبه دوماً ، اشتغل البروفيسور حاتم على حشد هذا السفر القيم بحصيلة مصدرية متنوعة ولن نبالغ أبداً أن وسمناها بكونها الأكثر إحاطة بما جادت به أرفف المكتبات وأضابير التدوين الموثق فيما يلى تلك الحقبة.

ويلقي هذا الكتاب ضوءاً لألأً على المسرح السوداني الذي سبق حوافر خيل الباشا الغازية وتقادمها نحو سودان القرن التاسع عشر. ومن ذلك تداعي الممالك والسلطنات التي احتربت في تشظٍ بَيِّن. وليس أدل على ذلك من شئ بمثل نهايات مملكة الفونج التي اقترنت بانفصام عروة التماسك المجتمعي والعشائري في مرحلة تفككها النهائية، مما دفع بعض زعماء القبائل السودانية للسفر الى مصر ترجياً لمحمد علي باشا حتى يُقدم على احتلال السودان. وقد عضد الكتاب تلك الأطروحة المهمة بمصادر تخرج بها من مرحلة الشك المستريب إلى نورٍ من اليقين مبين.

ويحمد لهذا السفر القيم امتداد الرؤى من حيث تقديم دراسة وافية للمناخ الدولى

الذي هيأ عملية غزو جحافل الباشا للسودان. ويستبين ذلك بوضوح فيما ورد بخصوص موافقة بريطانيا ورضاها المتمثل في مجهودات قنصلها لدى مصر.. هنري سولت مما يوضح انسجام القوى الدولية المؤثرة مع عملية احتلال السودان الدموية تلك وما صاحبها من انتهاكات اعتسرت ببأسها شعوب وقبائل تلك التخوم.

ولم يكن اسم محمد خسر والدفتردار صنواً للإفساد في الأرض قتلاً وسبياً وتشريداً منذ احراق المك نمر لفلذة كبد الباشا في شندي وحسب. ومن ذلك أن البروفيسور حاتم قد قدم لدراسته تلك باحاطة وافية لنشأته في جنوب أوربا وبأسه الشديد فيما وقع تحت قبضته من سلطان سابق. فالدفتردار نفسه كان صاحب منصب مرموق في قمة السلطة التراتبية التي كرسها محمد علي، فهو إلى جانب مصاهرته لسيده الباشا، كان أيضاً والياً على صعيد مصر قبل انطلاق الحملة. وقد يحسن بنا هنا الإشارة لواحدة من مآثر هذا الكتاب ألا وهي اشتغاله على الفرضية التي تربط بين ما استكن في جوف أرض السودان من ثروات غوالي وما حاق بأهله - بسببها - من مجازر مهلكات. فمنذ السرديات الأولى التي يأخذنا لها هذا الكتاب عن الباشا الكبير ومعاونيه على نحو الدفتردار، يتسيد المشهد كله التوق الشهواني الى المجد والسطوة ومن ثم احكام السيطرة بالقهر وقوة السلاح حتى ولو على أشلاء متفرقة وركام شتيت من الضحايا. وما أكثر مايكرر التاريخ نفسه على ألسنة الرواة.. وما أقل ما استطاعت جمهرة المتفرجين رد قدرياته المفجعة! ويرينا هذا الكتاب من فظائع هذا الدفتردار ما لم يرف على ذهن أحد حتى ولو كان على متن خاطرة عابرة مجنحة. وكانت كردفان الغرة الآمنة مبتدأ تلك الاعمال الإجرامية قبل أن يرسل الدفتردار حنقه على مصرع صهره اسماعيل باشا شرقاً وشمالاً وجنوباً. ويكشف الكتاب عن القسم المغلظ الذي أطلقه الدفتردار بانه سيهلك عشرين ألفاً من قبيلة الجعليين تحديداً في سياق عملياته الانتقامية. ومع توغل الكتاب نحو متنه، يستبين لنا أن تنكيل الدفتردار بالسودانيين تجاوز ذلك ليشمل السواد الأغلب من قبائلهم بما فيهم الحسانية، الجموعية والمحس وغيرهم.

واستفاض الكتاب في شرح حملة الدفتردار بتكوينات جيشه التي تجمع بينها صفة الجندية ارتزاقاً ويفترق بها السمت عرقاً ودماً. ومن ذلك تفصيله لمكوناته المتنافرة، ومنهم الأتراك، والبربر، والأكراد والقوقازيين مع مجموعات اخرى متنوعة. واسهب

بروفيسور حاتم فيوصف المذابح التي ارتكبها الدفتردار في حواضر الجعليين كالمتمة وشندي ومدن الشمال الأخرى على نح وبربر. وكان ذبح المدنيين تحديداً من الوسائل المروعة التي استخدمها الدفتردار في القتل والتنكيل. وفي السياق ذاته، يميط هذا السفر اللثام عن المزيد من عمليات الترويع والاهلاك حينما يورد تفاصيل اقدام الدفتردار على حرق أهالي المتمة الذين تدافعوا للاحتماء بخلوة الشيخ أحمد الريح. ليتم القضاء عليهم حرقاً بالنار وهم أحياء في العام 1823م! واللافت للنظر أن عمليات حرق الأهالي في المتمة وهم أحياء تكررت في المدينة بأكملها فيما أعقب مواجهات الدفتردار الثانية مع أبناء الملك نمر والملك مساعد ومن شهد معهم وقائع هذا المد الانتقامي. ويستفيض الكتاب في سرد اجتياح الدفتردار لجزيرة توتي والحلفايا ومن ثم العيلفون حيث عمل في أهلها قتلاً وذبحاً وسبياً. ولم تسلم الجزيرة ومناطق شرق السودان على نحو جبال التاكا من بطشه حيث أمعن في قتل وسبي أهالي تلك الجهات بذات الكيفية الوحشية. ولم يغفل الكتاب ديدن الدفتردار المألوف في ارسال الأسرى - أطفالاً ونساءاً ورجالاً - مكبلين بالسلاسل والأغلال لمصر حيث انتهوا تحت رحمة الباشا الكبير تلبية لمطالبه اللحوحة في استرقاق الأحرار ومن ثم جلب المال والثروات.

ولا يستقيم التقديم لهذا الكتاب دون الإشارة لسابقته في سرد تفاصيل المقاومة السودانية الشعبية لعسف الدفتردار وسيده الباشا. وابتناءاً على واقعة الملك نمر والملك مساعد مع اسماعيل باشا، لم يعد التاريخ اسيراً لنظرية الاختزال في مواقف صمدية. ومن ذلك أنه بفضل هذا الكتاب، احتفرت في صميم الوعي الجمعي ضمائر ملحمية نال بطولتها فرسان اختبأت خطاهم الجسورة في محطات التاريخ النسّية. من ذلك حركة الأرباب دفع الله وحسن ودرجب الذين اصطدما بقوات الاحتلال بالقرب من ود مدني في 1823م. مما يدحض القول السائد بأن اعلام مملكة الفونج وقادتها كانوا لقمة سائغة في فم الجيش المحتل.

ولابد أن هذه المجازر المروعة التي لم تخل ومن مواقف سودانية ملحمية شكلت الأوتاد التي ابتنى على ثقلها الوجدان المقاوم للاحتلال، وانتظر السودانيون قرابة الستة عقود حتى تنضج جهودهم الجماعية لتفجير ثورة شعبية أخرى على غرار الثورة المهدية، تداعت فيها جموعهم لهزيمة القوى المحتلة حين توفرت الإرادة واتفقت الكلمة .

ان أردنا أن نصطفى من الكلام صفوة تليق بنفائسية هذا السفر، فلابد لنا من تهنئة البروفيسور حاتم الصديق محمد أحمد على هذا العملالمهم والذي جاء في وقت ترزح فيها بلادنا تحت وطأة دامية من الحروب والانتهاكات التي تطال ببأسها الأبرياء وتلقي بروعها على الآمنين دون أن تبقى ولا تذر. كل ذلك لم يفت من عضد هذا المؤرخ المجتهد حتى استقام جهده هذا بنياناً مرصوصاً ليسد فراغاً عريضاً في المكتبة السودانية فيما يلي هذا المبحث تحديداً. ويبقى المؤرخ الأمين بموضوعيته ضميراً حياً لأمته وشعبه كلما تناوشته الملمات واحتوشته الشدائد الموبقات .

د. محمد المصطفى موسى
كولشستر - المملكة المتحدة
اكتوبر 2023م

الـمقدمـــة

يتناول هذا الكتاب حدثا من أهم الأحداث التاريخية التي شهدها السودان في تاريخه الحديث. وهي الفترة الممتدة من (1824-1821م)، فقد شهدت هذه الفترة عملية غزو السودان بواسطة جيوش محمد علي باشا التي أحكمت قبضتها على البلاد تحت قيادة إسماعيل بن محمد علي باشا وصهره محمد بك الدفتردار، ويمكن وصف سنوات الدفتردار في السودان بسنوات الفظائع والبطش والتنكيل.

كانت الفكرة في بداية الأمر إعداد ورقة علمية تتناول بالشرح والتحليل شخصية محمد بك خسرو الدفتردار، وتتبع ما ارتكبه من مجازر وفظائع في السودان، ثم تطورت الورقة لترى النور بحمد الله في كتاب يتناول التاريخ الأسود للدفتردار في السودان. وقد عمل الكتاب على التعريف بشخصية الدفتردار، وعملية غزوه لكردفان، ثم الحملات والفظائع التي قام بها ضد جموع أهل السودان من كردفان غرباً حتى التاكا شرقاً، ومن بربر شمالاً حتى سنار جنوباُ، ثم بعد ذلك أعماله في بعض المناطق في وسط السودان، وقد أسهمت الفظائع التي ارتكبها الدفتردار ضد أهل السودان في زيادة الكراهية لحكم محمد علي باشا وخلفائه في السودان، ومهدت الطريق في نهاية الأمر، مع غيرها من العوامل والأسباب، في قيام الثورة المهدية في العام (1881م) بقيادة الإمام محمد أحمد المهدي، حتى تحررت الخرطوم بعد ذلك في 26 يناير)1885م(، وانتهى بذلك الحكم التركي المصري في السودان.

جرى نقاش مستفيض وجاد لاختيار أنسب الأسماء لهذا الكتاب، وكان من الأسماء المطروحة: الإبادة الجماعية للسودانيين في عهد الدفتردار (1824-1821م)، والاسم الثاني حملات الدفتردار الانتقامية في السودان (1824-1821م)، واستقر الرأي في نهاية الأمر على الاسم الذي بين أيديكم، والذي تم التوافق عليه بعد نقاش وحوار مع عدد من الإخوة المؤرخين والمختصين، منهم البروفسور بركات موسى الحواتي الأستاذ بجامعة بحري، والدكتور قسم السيد حمزة أحمد أستاذ التاريخ بجامعة الزعيم الأزهري، والدكتور عوض شبا أستاذ التاريخ ونائب مدير مركز بحوث ودراسات دول حوض البحر الأحمر، بالإضافة إلى الدكتورين الأخوين العزيزين الدكتورأنعم محمد

عثمان، والدكتور عمر حميدة أساتذة التاريخ الحديث بقسم بكلية الآداب جامعة الخرطوم.

من الأسباب التي شجعت على اختيار هذا الموضوع وإصداره في كتاب، الإشارات الواضحة والكثيرة التي وردت في العديد من المصادر التاريخية والمراجع ومدونات وكتب الرحَّالة الذين زاروا السودان خلال فترة حكم محمد علي باشا وخلفاءه للسودان في الفترة من (1881-1821م) خصوصاً الرحَّالة إقناتيوس بالما، الذي زار كردفان في الفترة من (1837- 1839م). ومن خلال هذه الرحلة تمكن من توثيق العديد من المعلومات الدقيقة عن الدفتردار وفظائعه وانتهاكاته التي مارسها تجاه أهل السودان في مناطقه المختلفه، كما وردت العديد من الإشارات والمعلومات الصريحة والضمنية لقسوة وبطش الدفتردار طوال فترة وجوده في السودان التي امتدت منذ العام (1821 وحتى العام1824م).

تعد فترة محمد بك الدفتردار في السودان من أكثر الفترات قسوة في تاريخ السودان، لأنها ارتبطت بعمليات القتل والتشريد والتهجير والاسترقاق لمجموعات سودانية كانت مستقرة وآمنة في مناطقها، كما أن الدفتردار نفسه بالغ في عمليات القتل والإبادة والتهجير والاسترقاق، والسحل لأهل السودان الأمر الذي حفر في مخيلة جميع أهل السودان كراهية متجذرة لمحمد علي باشا وخلفائه ومعاونيه طوال الفترة الممتدة منذ (1821حتى1881م).

ويمكن القول أن عملية غزو السودان من قبل محمد علي باشا كان مخططاً لها بدقة لتحقيق العديد المطالب والأهداف التي نجح الباشا - المتعطش للمال والشهرة والتوسع - في بعضها وفشل في البعض الآخر منها. وقد دفع أهل السودان الثمن غالياً من أجل بناء إمبراطورية محمد علي باشا وخلفاءه في مصر، ولولا موارد وثروات السودان لما تمكن محمد علي باشا من تحقيق ما أنجزه في مصر طوال فترة حكمه.

الفصل الأول

تـمهيـــد عـــام

لـمحة عن الأوضـاع في السودان قبل الغـزو

الفصل الأول

تـمهيـــد عـــام

لـمحة عن الأوضـاع في السودان قبل الغـزو

كان السودان قبل غزو محمد علي باشا يحكم بواسطة عدد من الممالك الإسلامية أشهرها سلطنة الفونج التي تأسست في العام 1504م، وسلطنة الفور، ثم مملكتي تقلي والمسبعات في شمال وجنوب كردفان. وقد امتدت حدود سلطنة الفونج من فازوغلي جنوباً وحتى الشلال الثالث شمالاً، ومن كردفان غرباً وحتى البحر الأحمر شرقاً عدا مدينة سواكن التي سيطر عليها العثمانيون منذ العام 1517م. كما امتدت حدود سلطنة الفور، التي تأسست في العام 1640م على يد السلطان سليمان سولنجق، من كردفان شرقاً حتى وداي غرباً. وكان إقليم كردفان محل تنافس بين المملكتين، أما المملكة الثالثة فهي مملكة تقلي الإسلامية التي نشأت في منطقة جبال تقلي بجنوب كردفان في العام 1530م. وقد حافظت مملكة تقلي على استقلالها ولم تسقط في يد الفونج على الرغم من محاولات غزوهم المتكررة. وقد كانت مملكة الفونج من أقوى الممالك الإسلامية في السودان وأكبرها مساحة، وكان لها علاقات خارجية جيدة، ومع ذلك كانت الفوضى تعم معظم أقاليم السودان ولم يكن للفونج إلا السيادة الاسمية على عدد من المناطق[1].

بدأ الضعف يدب في جسد الممالك الإسلامية السودانية بصفة عامة والفونج على وجه الخصوص، منذ منتصف القرن الثامن عشرالميلادي، لهذا زحفت قوات محمد علي باشا لغزو السودان وبسطت سيطرتها عليه بسهولة ويسر في العام (1820م). وقد أشار عدد من المؤرخين الوطنيين وغيرهم لحالة الضعف التي سادت الممالك السودانية، والتي كان من أهم أسبابها ضعف التحالفات التي كانت قائمة بين القبائل التي كونت الدولة السنارية، حيث أن البعض كان على خلاف مع السلطة الحاكمة في سنار، وسعى البعض منها على الانفكاك من سيطرة الفونج، والدليل على ذلك سفر بعض زعماء القبائل لمصر ومقابلة محمد علي باشا وحثّه على غزو السودان، الأمر

الذى أدى لظهور تحالفات جديدة في السودان بين الحكم التركي والقبائل السودانية التي ساندته وعملت على تقوية شوكته ليحل محل الدولة السنارية.

أسباب غزو السودان:

لم تكن الأسباب التي دفعت محمد علي باشا لغزو السودان جديدة، فالسودان ومنذ أقدم العصور محل أطماع النخب المصرية الحاكمة، وكانت موارده وثرواته مطمع لأي حاكم تربع على عرش مصر، فقد ورد في حجر (بالرمو) أن الملك سنفرو من الأسرة المصرية الثالثة (2900 ق.م) قام بغزو بلاد النوبة وتمكن من أسر سبعة آلاف من النساء والرجال، وغنم ألفين من الثيران، والعجول، وبعد عودته لمصر عمل على تشغيل الرجال في خدمة الدولة، أما النساء فقد عملن في قصور الملك، وتم ذبح بعض العجول وتهجين البعض منها مع الأبقار المصرية بغرض تحسين نسلها[2] وفي عهد الملك (بي) الأول من الأسرة السادسة (2600 ق.م)الذي تمكن من جمع جيش من المجموعات السودانية بغرض إخضاع بعض القبائل في شرق السودان، وفي عهد الأسرة المصرية الثانية عشرة نجح المصريون في التعدين عن الذهب في الأراضي السودانية، كما عملوا على شق الطرق النهرية والبرية لتصدير ذلك المعدن النفيس إلى مصر. وتواصلت رغبة المصريين في الحصول على موارد وثروات السودان الثمينة طوال حكم الأسرات المصرية[3].

مما سبق نجد أن السودان بموارده وثرواته كان حاضراً في السياسية المصرية بقوة منذ عهد بعيد، وكان وجهة ومطلب أي حكومة تربعت على عرش مصر، وعندما جاء محمد علي باشا وأصبح حاكماً لمصر لم يفكر كثيراً في كيفية الحصول على الموارد والثروات التي يطمح في الحصول عليها لتأسيس إمبراطوريته، فوجه أنظاره ناحية السودان، البلد القريب من ناحية الجغرافية لمصر والغني بثرواته وموارده التي يمكنها أن تحقق للباشا بعض أحلامه وطموحاته.

وقبل الدخول في الأسباب التي دفعت محمد علي باشا لغزو السودان يجب أن نتعرف على شخصية محمد علي التي بسطت سيطرتها على مصر، ثم أنطلق للتوسع على حساب مناطق أخرى وهي الشام، والحجاز، والسودان.

ولد محمد علي باشا في العام (1182هـ/ 1769م)، وقد اتصف بالشدة وقوة الشخصية[4]، وجاء إلى مصر ضمن القوات التركية بغرض طرد الفرنسيين. وأصبح في

العام (1218هـ/ 1801م) أحد قادة الفرقة الألبانية التركية في مصر. وبعد احتدام الصراع الداخلي بين المكونات المصرية عمل محمد علي باشا على استغلال هذا الصراع لمصلحته الخاصة، والوصول إلى حكم مصر في 13 مايو 1805م، ونجح محمد علي باشا في تحقيق ما خطط له وانفرد في نهاية الأمر بحكم مصر، رغم الصراعات الداخلية والمشاكل الكثيرة[5].

بعد أن سيطر محمد علي باشا على مقاليد الحكم في مصر، وبعد نجاحه في القضاء على الثورة الوهابية وبسط سيطرته على شبه الجزيرة العربية بدأ يفكر في غزو السودان[6].

تشير بعض المصادرالتاريخية بأن بريطانيا كانت على علم تام بأطماع ومخطط محمد علي باشا الرامي لغزو السودان، كما أن علاقته بالقنصل البريطاني في مصر (هنري سولت) Henry Salt كانت جيدة في فترة ما قبل الغزو، وكان محمد علي باشا يصرح في أكثر من مناسبة بولائه لبريطانيا، وأنه لن يقوم بأي عمل جليل دون موافقتها، كما أن هنري سولت، وفي العام نفسه الذي تم فيه غزو السودان، طلب زيارة لبريطانيا بغرض العلاج في ظاهر الأمر، لكن يرجح بأنه كان يرغب في إيصال رسالة محددة للحكوممة البريطانية، حيث قال: (... إن رجلنا العظيم هنا (يقصد محمد علي باشا) يلح من أجل اتصالات لايمكن كتابتها على الورق...)[7].

يعتقد أن بريطانيا قدمت النصح لمحمد علي باشا بخصوص غزو السودان، وعندما شعرت بريطانيا بأن قوات الباشا بدأت في التوغل جنوبا أبعد من سنار، خشيت من طموح الباشا الذي يزداد يوماً بعد يوم، وذلك عندما أصبحت قوات إسماعيل على تخوم الحبشة. وزادت المخاوف البريطانية من دخول قوات محمد علي باشا للحبشة والسيطرة عليها، ثم الوصول إلى البحر الأحمر والسيطرة على مدخله من جهة الغرب، وقد أبلغ (سولت) محمد علي باشا أن هذا الأمر، أي التوغل ناحية الحبشة والبحر الأحمر، غير مرغوب فيه من قبل بريطانيا. عندها أجاب الباشا: (... رغم أن هذه المنطقة مليئة بالذهب والمجوهرات، وإن فتحها مؤكد فإنه (يختار) التخلي عنها محافظة على علاقته مع بريطانيا العظمى...)، وقد علق سولت على وعد محمد علي باشا له بقوله: (... لم أعهده مطلقاً يعطي كلمة لنا وهو لا يعتزم الوفاء بها...)[8].

يرجح أن بريطانيا كانت على علم بحملة غزو السودان، وأنها سمحت بهذا الأمر لتمكن محمد علي باشا من بسط سيطرته على السودان على أمل استعادته متى ماسمحت لها الظروف الداخلية والدولية، وربما يحدث ذلك مستقبلاً.

هناك العديد من العوامل والأسباب التي دفعت محمد علي باشا لإرسال حملتين بقيادة ابنه إسماعيل وصهره محمد بك الدفتردار لغزو السودان، وبدراسة هذه الأسباب يتضح لنا أن الباشا كان واثقاً جداً وطموحاً في غزو أرض السودان، ومن هذه الأسباب:

- الحصول على الرجال والمال وهما من أهم العناصر لبناء دولة حديثة في تلك الفترة.
- وقف تمدد المماليك أعداء محمد علي باشا في شمال السودان ومنعهم من تكوين قوة مسلحة تهدد أمن مصر من حدودها الجنوبية.
- السيطرة على ساحل البحر الأحمر، ولأن السودان يمتلك ساحلاً طويلاً ومميز يمكّن محمد علي باشا من إعادة التجارة وتأمينها عبر هذا الشريان المهم والاستراتيجي، لذلك كانت فكرة السيطرة على البحر الأحمر والساحل السوداني من أهم أسباب غزو محمد علي باشا بعد الرجال والمال.
- التخلص من جنوده الألبان وغيرهم من الأجناس الأخرى والاستعانة بالقوات السودانية.
- رغبة محمد علي باشا الأكيدة في السيطرة على كل حوض وادي النيل من منبعه حتى مصبه ليصبح حاكماً عليه (9).
- زيَّنت مجموعة من المستشارين الذين يعملون في خدمة محمد علي باشا له فكرة غزو السودان والسيطرة عليه، وأن هذا البلد المترامي الأطراف يمتاز بالأراضي الواسعة، وقابلية الاستعمار، وذلك لضعف الممالك والسلطنات التي تسيطر عليه (10).

لهذه الأسباب ولغيرها تحركت قوات محمد علي باشا بعد أن إكتملت استعداداتها للسيطرة على السودان.

الهـوامــــش:

(1) رأفت غنيمي الشيخ، مصر والسودان في العلاقات الدولية، مكتبة الدراسات التاريخية والعلاقات الدولية، عالم الكتب، القاهرة، (ب.ت)، ص73.

(2) حسن كمال، تاريخ السودان القديم، مطبعة المقطم والمقتطف، القاهرة، 1924م، ص5.

(3) المرجع نفسه، ص6.

(4) محمد علي الكبير، الذكرى المئوية لوفاته، الجمعية الملكية للدراسات التاريخية، دارالمعارف، القاهرة، 1949م، ص 27.

(5) محمد الأمين سعيد، سياسة محمد علي في السودان (1264-1235هـ / 1848-1820م)، (ب. د) 2016م، ص35-36

(6) محمد محمود السروجي، دراسات في تاريخ مصر والسودان المعاصر، (ب. د)، القاهرة، 1998م، ص 263.

(7) سليمان الغنام، قراءة في سياسة محمد علي باشا التوسعية في الجزيرة العربية والسودان واليونان وسوريا (1840-1811م)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 200م، ص 64.

(8) المرجع نفسه، ص 66.

(9) شوقي الجمل، تاريخ سودان وادي النيل حضاراته وعلاقته بمصر من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر، مكتبة الانجلوالمصرية، القاهرة، 2008م، 321-320.

(10) عبدالله حسين، تاريخ السودان، دار الحياة للنشر، القاهرة، 2016م، ص123.

الفصل الثاني

غزو كردفان

غزو الدفتردار لكردفان

الفصل الثانـــي
غــزو كــردفـــان
غــزو الـدفتــردار لكردفـــان

إقليم كردفان:

كانت كلمة كردفان ترمز في البداية لجبل (كردفان) الذي يقع بين خطي 13,04 درجة غرباً، و30,21 درجة شرقاً بالقرب من منطقة العين، وقد أُخذ هذا الاسم من أهالي كردفان لقولهم (كلد فار) أي كلد يغلي، وكان كلد هذا آخر ملوك النوبا الذين احتلت منهم قبيلة الغديات جبل كردفان، ومن عادة هذه المجموعة التنقل خلف المرعى والماء، فوجد الاسم انتشاراً واسعاً وأصبح يطلق على كل إقليم كردفان[1].

يقع إقليم كردفان بين خطى طول 16-9 درجة شمالاً، وبين النيل وخط عرض 27,30، وطوله حوالي 400 ميلاً، وعرضه حوالي 350 ميلاً، وتبلغ مساحة الإقليم نحو 130,500 ميلاً مربعاً، وتمتد حدود الإقليم شمالاً من نقطة في الصحراء الكبرى من نقطة في الشمال الغربي قرب خط الطول 16,30 درجة شمالاً تقريباً، ويستمر حتى هوبجي وآبار جبرة حتى فتاشة فيقاطع خط الطول 15,27 درجة من ناحية الضفة الغربية للنيل الأبيض، وتصل حدود إقليم كردفان شرقاً إلى نقطة قرب الجبلين محازية النيل جنوباً حتى بحيرة (نو). وأما حدوده الجنوبية فيكونها خط يبدأ من التقاء بحيرة (نو) ببحر الجبل على امتداد طولي متعرج في اتجاه غربي. ومن ناحية الغرب تفصل كردفان عن درافور سلسلة من الكثبان الرملية قرب تلال أم كدادة حيث تضيف أم بادر وفوجا لكردفان، ويستمر الخط الغربي في اتجاه جنوبي حتى بحر العرب[2].

التركيبـة السكانيــة:

تتعدد المجموعات السكانية التي تقطن في إقليم كردفان، حيث تسكن فيه مجموعات من الكبابيش، والكواهلة، والهواوير، والحمر في شمال كردفان، وهي المناطق الصحراوية من الإقليم، وتحترف هذه المجموعات رعي الإبل. وفي جنوب كردفان توجد مجموعات البقارة التي تقوم برعي الأبقار وهي قبائل المسيرية الزرق

والحُمر، والهبانية، والحوازمة، وأولاد حميد، وبني سليم، والنوبا. وهناك مجموعات سكانية تقطن في وسط كردفان مثل الجوامعة، والبديرية، والغديات، وهناك أيضاً مجموعات فزارة والتي تضم قبائل دار حامد التي تسكن مدينة بارا، ومن فروع دار حامد الجليدات، والمجانين، والمرامرة، والفراحنة، والهبابين، وهناك أيضاً قبيلة بني جرار، ومن المجموعات السكانية أيضاً في كردفان البزعة، والشنابلة[3].

والمتتبع للتركيبة السكانية في إقليم كردفان يجد أن هذا الإقليم يمتاز بالكثافة السكانية وتعدد قبائله، وذلك بسبب ثراء الإقليم وتعدد موارده وثرواته، وموقعه الجغرافي الوسط لأنه نقطة اتصال بين مناطق السودان المختلفة. ولذلك أصبح نقطة انصهار وتواصل لعدد كبير من القبائل السودانية عبر مختلف الحقب التاريخية.

تعرض إقليم كردفان على مر التاريخ للعديد من الغزاوت والتي منها غزوات سلطنة الفور، وسلطنة الفونج، والدينكا، والغزو التركي المصري، وتدل هذه الغزوات المتواصلة على أهمية الإقليم لمن يسعى للسيطرة عليه[4].

سيطر النظام القبلي على إقليم كردفان، حيث كانت كل قبيلة تعمل على إدارة شوؤنها الخاصة وفق الأعراف. وقد دخل إقليم كردفان دائرة الطموح السناري منذ أيام السلطان بادي أبوشلوخ عندما أرسل حملة عسكرية للاستيلاء على كردفان من المسبعات، بقيادة ود تومة وشيوخ العبدلاب ومحمد أبولكيلك. وفي العام 1747م تعرض هذا الجيش لهزيمة مريرة في معركة قحيف* وقتل في هذه المعركة كل من ودتومة، وزعماء العبدلاب عبدالله راس تيره، وأخوه الأرباب شمام. وتمكن القائد محمد أبولكيلك من إعادة ترتيب جيشه مرة أخرى وهزيمة المسبعات، وتم تعينه بعد ذلك من قبل السلطان بادي قائداً على الجيش في كردفان. وظل حاكماً عليها حتى العام 1762م. ومن كردفان زحف أبولكليك على سنار بالاتفاق مع زعماء الفونج، وتمكن من الإطاحة بالسلطان بادي أبوشلوخ، وأصبح الوزير الأول الذي لديه سلطة الحل والعقد. وشكَّلت هذه الخطوة البداية الفعلية لسيطرة الهمج من أحفاد أبولكيلك على السلطة في سنار والتي استمرت حتى دخول إسماعيل بن محمد علي باشا للعاصمة سنار.

نتيجة لسيطرة الفونج على كردفان ازدهرت أحوال الناس، ووفدت مجموعات كبيرة من سنار ودنقلا للإقليم، الأمر الذي انعكس إيجاباً على التجارة حيث ازدهرت بصورة كبيرة[5].

أصبحت كردفان هدفاً لطموح الفور بغرض غزوها والسيطرة عليها عندما وفد إليها السلطان هاشم المسبعاوي بعد خلافه مع سلطان دارفو، وتمكنت قوات الفور من التوغل في كردفان والسيطرة عليها، وطرد هاشم المسبعاوي، والذي احتمى بسلطان الفونج في سنار، وقد استمر حكم الفور لإقليم كردفان لمدة 34 عاماً، ازدهرت فيها أحوال الإقليم وانتعشت التجارة، وكان الإقليم يقوم بدفع الضرائب لملوك الفور طوال هذه الفترة. ومن الملاحظ انتعاش التجارة. والزراعة في عهد سيطرة الفور على كردفان، فكانت السلع والبضائع تأتي من مصر وأثيوبيا، وغرب أفريقيا، ونتيجة لانتعاش التجارة انتشر لبس الذهب وسط النساء بكميات كبيرة، وتحولت أحوال الإقليم للأفضل، وقد استمر هذا الأمر حتى وصول قوات الغزو التركي لكردفان[6].

تبين للأهالي في كردفان الفرق بين حكم الفونج والفور، وتحديداً حكم أبولكيلك وحكم الفور، فقد اتصف حكم الفور بالشدة، ومايدل على كراهية بعض القبائل لحكم الفور في كردفان تعاونت قبيلتا الكبابيش والدواليب مع الدفتردار، حيث كان يطمح الدوليب أصحاب الحظ التجاري الأوفر في الإقليم في إيجاد مجالات أرحب للتجارة مع الحكم الجديد[7].

كردفــان والـمقدوم مسلــم:

المقدوم مسلم الفوراوي هو حاكم كردفان منذ العام 1811م من قبل سلطان الفور السلطان محمد الفضل (1802-9 183م). وقد اتصف المقدوم مسلم بالشجاعة والكرم، وقد تم إرساله لبسط سيطرة الفور على إقليم كردفان وكان له ذلك، وعندما وصلت أخبار حملة غزو كردفان تحت قيادة محمد بك الدفتردار للمقدوم مسلم في كردفان، وأن الجيش الغازي يتحرك نحوه بقوة عسكرية* قوامها 4000 جندي مسلحة بثمانية مدافع، عندها قرر المقدوم مسلم الاستعداد للمعركة الحاسمة[8].

تشير عديد من المصادر والمراجع التاريخية إلى أن المقدوم مسلم كان يتصف بالعديد من الصفات الحميدة منها: الشجاعة، والحزم، والكرم، وملم بالفقه والعلوم الشرعية، كما اتصف بالعدل، والعمل على تشجيع العلم والعلماء، ومما سبق نجد أن المقدوم مسلم قد ترك سيرة عطرة وصفات جميلة، كما أنه تمكن من مقاومة الغزو الأجنبي حتى استشهد.

كان إقليم كردفان مسرحاً للنزاع والتنافس الطويل والمستمر بين كل من مملكتي الفور والفونج، فكل من القوتين كان يسعى للسيطرة على هذا الإقليم المترامي الأطراف والغني بموارده وثرواته، بالإضافة إلى أهميته الاقتصادية، حيث عُرفت كردفان بغناها وتوفر المحاصيل المختلفة فيها، والتي من أهمها الصمغ العربي، وقد شجعت خيرات كردفان محمد علي باشا على غزوها[9].

نلاحظ أن ثروات وخيرات السودان مجتمعة كانت محط أنظار محمد علي باشا، كما أن كردفان لم تكن بعيدة عن طموح الباشا وجشعه في الحصول على خيرات وموارد وثروات هذه البلاد، كما نجد أن ثروات السودان كان مصدر نغمة عليه وعلى شعبه عبر العصور، حيث لم يستفد هذا البلد القارة من موارده وثرواته حتى اليوم، الأمر الذي يجعله عرضة للأطماع الآن وفي كل العصور.

محمـــد بـــك الدفتـردار:

هو محمد بك خسرو (الدفتردار*) الدارمالي، جندي تركي روميلي، عمل في خدمة محمد علي باشا، جاء من (دارما) في مقدونيا وتربى في (إسطنبول)، وكان يدعى بالأستانلي (الاستنبولي بالعربية)، عينه السلطان العثماني في خدمة محمد علي باشا مديراً للمال وحاملاً لسجل الأراضي الذي يعد مفتاح ضريبة الأطيان، وتزوج من ناظلي هانم ابنة محمد علي باشا، كسب ثقة الباشا عندما كان محافظاً لصعيد مصر ونجح الدفتردار في الإشراف على المالية وجمع الضرائب[10].

يعد الدفتردار أحد السواعد القوية التي اعتمد عليها محمدعلي باشا في تثبيت أركان حكمه في مصر، ووكانت الأدوار التي قام بها الدفتردار لمصلحة الباشا لا تقل عن الأدوار التي قام بها إبراهيم باشا أكبر أبناء الباشا، ومحمد الاظوغلي نائب الوالي، وصالح قوش مهندس ومخطط مذبحة القلعة الشهيرة، وقد حضرت هذه المجموعة صحبة محمد علي باشا لمصر في العهد العثماني، وقد نجح الباشا في الاستفادة من الأوضاع في مصر وتسنم بعد حين إدارة الدولة، وكان محمد علي باشا يميل إلى استخدام أمثال الدفتردار لأنهم مطيعون ويعملون على تنفيذ جميع أوامره دون تردد، وقد نجح الدفتردار في بسط سيطرة الباشا على كل مصر، كما تمكن من قمع أي تمرد ضده، وتكريماً له عمل محمد علي باشا على تزويجه من ابنته ناظلي هانم، وكان الهدف من ذلك رغبة الباشا في الاحتفاظ بولاء الدفتردار للأبد[11].

تشير عدد من المصادر لاتصاف الدفتردار بالذكاء، وابتكاره لطرق جديدة لزيادة الضرائب المتحصلة من الأهالي في صعيد مصر، كما اتصف بالقسوة، والوحشية وإذ لا تعرف الرحمة طريقا إلى قلبه، وكان يعشق سفك الدماء منذ أن كان في القاهرة وصعيد مصر، وكان قد تم عزله من إمارة الصعيد في مصر في العام 1235هـ/1819م ليصبح قائداً لحملة غزو كردفان بعد ذلك. وعلى الرغم اتصاف الدفتردار بالذكاء وولائه لمحمد علي باشا إلا أننا نجد أنه قد ارتكب العديد من الفظائع منذ أن وطئت قدماه أرض السودان.

وارتبط اسم محمد بك الدفتردار عند أهل السودان في أول الأمر بعملية غزو كردفان، ثم أصبح اسم الدفتردار مرادفاً لكل ماهو بغيض وشنيع من بطش وتنكيل وتعذيب في فترة حكم محمد علي باشا للسودان وما بعده.



لوحة: (1) محمد بك الدفتردار

حملة غــزو كردفــان:

كان محمد علي باشا يعوُّل بصورة كبيرة على حملة غزو كردفان للحصول على الرقيق وغيره من المعادن والثروات التي يتميز بها هذا الإقليم[12].

وقد بدأت الاستعدادات لهذه الحملة منذ أواخر العام 1235هـ/ 1820م، وكان الهدف من هذه الحملة غزو دارفور بعد ذلك، وبدأت السفن المحَّملة بالغلال تعبر الشلال الأول عند أسوان متجهة نحو وادي حلفا، وصدرت الأوامر من محمد علي باشا لمتصرف (جرجا) أن يبقى بأسوان بغرض جمع أكبر عدد من الجمال* لهذه الحملة، كما كتب لابنه إسماعيل باشا في العام 1236ه/1820م يطلب منه إرسال السفن الزائدة عن حاجته إلى حلفا لتساعد في نقل عتاد ومؤن حملة الدفتردار لغزو كردفان[13].

وصل الدفتردار إلى مدينة إسنا بمنطقة الأقصر صعيد مصر،وتقع على الضفة الغربية لنهر النيل في 23 جمادى الآخرة – 28 مارس 1821م للإشراف المباشر على استعدادات جيشه، ولتغطية الاحتياجات اليومية من الغلال للحملة التي تقدر بخمسين أردباً، والأردب يعادل جوالين من الذرة وغيرها من المحاصيل ، فقد تم تسيير قافلة تتكون من ألف جمل محَّملة بالمؤن اللازمة إلى مدينة دنقلا التي تقع في شمال السودان على الضفة الغربية لنهر النيل، وتعد مدينة دنقلا من أقدم الحواضر السودانية على أن تعود القافلة مرة أخرى لنقل الأحمال، وفي دنقلا بذل حاكمها عبدي كاشف جهوداً مضنية حيث عمل على إعداد أربعة شون (مخازن كبيرة) لتخزين مهام الجيش[14].

تكونت الحملة التي قام محمد علي باشا بإرسالها للسيطرة على كردفان من 4000 (أربعة آلاف مقاتل) من الأتراك والمغاربة، تحت قيادة صهرة محمد خسرو بك الدفتردار، وكان معهم عشر مدافع حربية بغرض غزو إقليم كردفان، وقد انطلقت هذه الحملة من دنقلا، ثم الدبة ومنها نحو الأبيض، وقد كانت كردفان في العام 1821م تقع تحت سيطرة السلطان محمد الفضل سلطان الفور، ويحكمها من قبله المقدوم مسلم. تحركت حملة الدفتردار من القاهرة إلى أسوان، ثم غادرها في 23 رجب 1236هـ/ 26 أبريل 1821م متوجهاً ناحية دنقلا بغرض السيطرة على كردفان ومنها نحو الدبة[15].

عسكرت قوات الدفتردار في الدبة لبعض الوقت وذلك بغرض إكمال الاستعدادات قبل الدخول في الصحراء، حيث أن الدبة تمثل بداية الطريق لعبور الصحراء نحو كردفان. ومن الدبة قام الدفتردار بإرسال هجانين بحجة تسليم رسالة منه للمقدوم مسلم حاكم كردفان، ولكن كان الغرض الأساسي لهذه المهمة هو دراسة الطريق من الدبة حتى كردفان، ومعرفة أحوال البلاد، وأيضاً كان الدفتردار ينتظر في الدبه وصول مدد من القرب اللازمة لنقل المياه من شونة أسوان، وقد قرر الدفتردار الزحف نحو كردفان بعد وصول هذه (القرب) في أواخر شوال 1236هـ/ أواخر يوليو 1821م[16].

تحركت الحملة من منطقة الدبة على نهر النيل في شمال السودان لتقطع صحراء بيوضة متجهة نحو منطقة الحرازة التي وصلتها في تسعة أيام، وفي اليوم الحادي عشر من بداية الزحف وصل الدفتردار وقواته إلى مدينة بارا، وتولى الشيخ سالم شيخ قبيلة الكبابيش إرشاد حملة الدفتردار في صحراء بيوضة، وكان يرغب في اتقاء شر الدفتردار من خلال معاونته له، وأن يحافظ على قبيلته من بطش الدفتردار المتعطش للدماء، وقد دفعت صرامة الدفتردار عدداً من أبناء قبيلة الكبابيش للهروب والتسليم لإسماعيل باشا قائد حملة غزو سنار التي تحركت جنوبا [17]. بعد مغادرة قوات الدفتردار لنهر النيل في الدبة تحركت عبر مناطق أم بليلة، والعامري، والهوبجي، والصافية، وأم مصارين، وجبل الحرازة، وجبل العطشان، وكجُمر، وأم دايوكة الفكي وصولاً إلى مدينة بارا [18]، وفي الطريق نحو كردفان في 17 رجب 1236ه / أبريل 1821م، كتب الدفتردار للمقدوم مُسلم يطلب منه التسليم، وأنه مرسل من قبل محمد علي باشا لبسط السيادة على كردفان، فرفض المقدوم مسلم هذا الأمر[19].

جاء في رسالة الدفتردار للمقدوم مسلم حاكم كردفان من قبل سلطان الفور أنه قدم لكردفان من قبل سلطان الإسلام، وأنه يطلب منه التسليم لأن المقاومة تعني الخروج على دولة الإسلام في الإستانة، ورغم أن رسالة الدفتردار التي حاول من خلالها استعطاف المقدوم مسلم وحثِّه على التسليم، رفض الأخير أمر التسليم، وعمل على استنفار خيَّالة كردفان، ومشاة دارفور، وكتب للدفتردار يقول: (... نحن في بلدنا مسلمين وتابعين كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم بالأمر والنهي في زمان السلاطين المتقدمين... كل سلطان يحكم أهل بلده بما قال الله... ولا ظهر في زمن السلاطين المتقدمين من العثمانيين من خاطبنا بهذا الخطاب، ولا من يرسل التجريدة

على بلد الإسلام إلا أنتم في زمن محمد علي باشا... وأنتم تحت سلطان آل عثمان خليفة رسول الله، ولكن نحن خارجين على حكمه ولا هو مسئول بنا يوم القيامة... نحن ما خالفنا كتاب الله وسنة رسوله... أنتم غاصبين وطاغين... فجاز دفع السيال... إن جيت بلدنا أنت ظالم ونحن مظلومين، وإن متنا مظلومين وشهداء بين يدي الله تعالى[20].

وفي صيغة أخرى لرد المقدم مسلم على الدفتردار أوردها مكي شبيكة: (... إلى حضرة دار تابع محمد علي مني إليك جزيل السلام ومزيد التحية والإكرام. أما بعد، فخطابك الذي أرسلته إلينا فهمناه وما فيه من جهة السيال والطمأ وغير ذلك، فهمناه طيب إن كان نحن في بلدنا مسلمين وتابعين كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم بالأمر والنهي في زمان السلاطين المتقدمين، أنتم أهل بحر ونحن أهل بر، وكل سلطان يحكم أهل بلده بما قال الله، ولا نحن تحت ملككم من زمان سابق: كل سلطان يحكم رعيته بما قال الله وهو المسؤول. أما أنتم فغير مسؤولين عن حكم ديار الغير...). وفي آخر الرسالة يقول المقدوم مسلم: (... نحن ماخالفنا كتاب الله وسنة رسوله ولا عهد الله لكم بقدوم بلادنا. أنتم غاصبين وظالمين وسايلين كما قال الشيخ فجاز دفع سايل. إن جيت بلادنا أنت سايل وظالم ونحن مظلومين، إن متنا في دارنا متنا مظلومين وشهداء بين يدي الله...). عندها تأكد للدفتردار أن المقدوم مسلم قرر المواجهة[21].

ذكر الدفتردار للمقدوم مسلم بأنه لم يأتي لحربه، وإنما جاء باسم سلطان الإسلام يطلب الجزية التي يدفعها أمراء المسلمين، وإن طبق المقدوم مسلم هذا الأمر سوف ينسحب الدفتردار، وقطعاً لم يكن الدفتردار صادقا في انسحابه من كردفان لأنه جاء وفق أوامر وتوجيهات وخطة وضعت بعناية من قبل محمد علي باشا في مصر. عندها اجتمع المقدوم مسلم مع الملوك ومستشاريه واقتنع الجميع بأن كل ما قدمه الدفتردار من حجج ليست مبرراً لاحتلال كردفان وقرر الجميع المقاومة[22].

اتخذ المقدم مسلم قراره القاضي بالخروج من مدينة الأبيض ومواجهة قوات الدفتردار في سهل بارا، وقد كان هذا القرار في مصلحة قوات الغزو لأن السهل منح ميزة عسكرية لقوات الدفتردار المسلحة بالأسلحة النارية والمدافع، وقد تمكن سلاح المدفعية من حصد قوات المقدوم مسلم، وهزمت قواته في هذه المعركة[23].

الناظر لتسليح قوات المقدم مسلم يجد أنه يتكون منالدروع الخشنة والفؤوس والسهام، وبعض الأسلحة النارية، وكانوا عراة تقريباً، وعلى الرغم من هذا التسليح الضعيف مقارنة بقوات الدفتردار نجد أنهم قد استبسلوا بصورة واضحة وكان النصر متكافئا بين الطرفين[24].

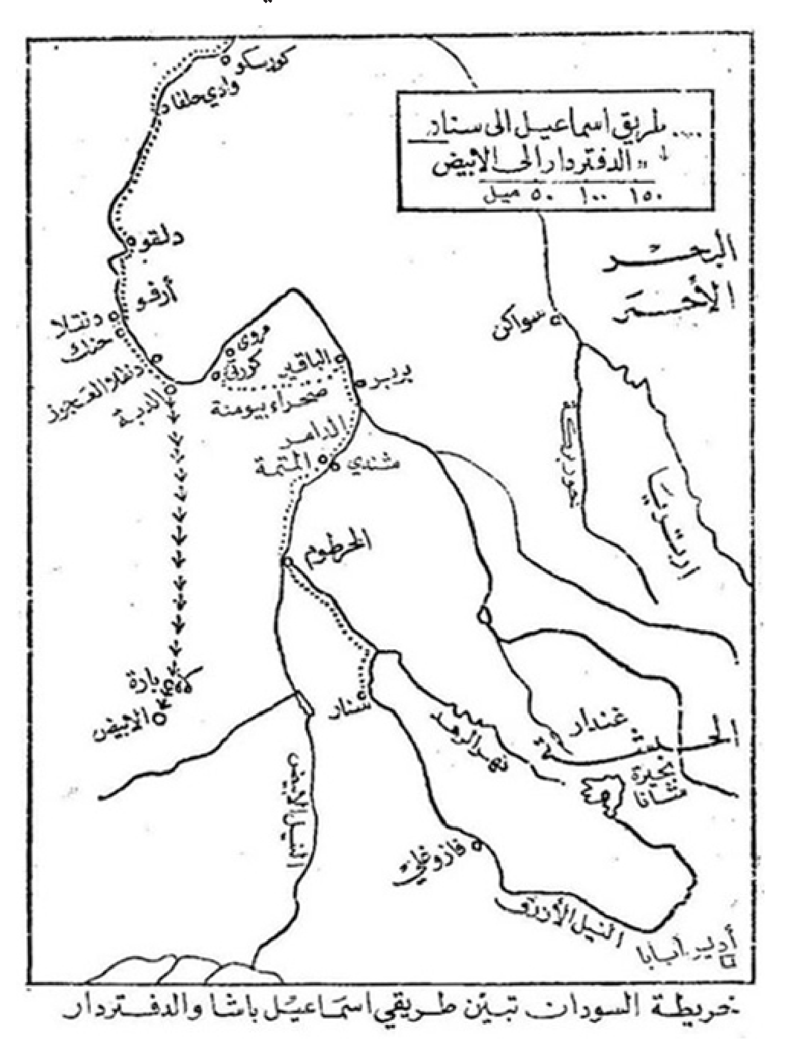
كانت المعركة بين المقدوم مسلم والدفتردار معركة حامية الوطيس، انتصرت فيها قوات الدفتردار في المعركة الأولى وهُزمت في الثانية، لكن تفوق السلاح الناري أدى لترجيح كفة قوات الغزو وقتل المقدوم مسلم نتيجة طلق ناري أصيب به، وقد عثر أحد زعماء قبيلة الجوامعة على المقدوم مسلم بعد مقتله، وتفرقت القبائل بعد ذلك نتيجة لمقتل المقدوم مسلم[25].

كان في جيش المقدوم مسلم فارس يسمى إبراهيم ود دير*، وكان مقاتلاً شرساً تحرك بفرسه ناحية مدافع الدفتردار، وتمكن من قتل بعض الطوبجية ضاربي المدافع، وضرب أحد المدافع بسيفه الذي كان من الفولاذ، وترك علامة واضحة على المدفع، وظل يقاتل بشراسة، ويذكر أنه قد قال أثناء المعركة: (... إني هاجم على هذا المدفع لأضربه بسيفي فإن عشت كان قسمي وإن مت كان وسمي...)، وقد كانت له الشهادة، وحفر بسيفه وسماً على المدفع وسمي بمدفع ود دير، وبقي في الأبيض حتى استولت عليه قوات المهدية، وحمل المدفع بعد ذلك من الأبيض إلى أم درمان[26].

أجمعت المصادر والمراجع التاريخية على أن معركة بارا (1821م) التي دارت بين قوات المقدوم مسلم حاكم كردفان، وقوات الجيش الغازي بقيادة الدفتردار من أشرس المعارك التي خاضتها قوات محمد علي باشا في السودان، ومرد ذلك أن المقدوم مسلم قرر مواجهة الجيش الغازي بكل ما يملك من أسلحة وعتاد، مستفيداً من عزيمته وإصرار قواته على الدفاع عن وطنهم، وكذلك وقوف النساء والأطفال إلى جانبه في هذه المعركة، وقد كانت معركة بارا واحدة من أهم معارك البطولة السودانية ضد القوات الغازية، حيث تجلت فيها عزيمة وقوة وصبر المقاتل السوداني ودفاعه عن أرضه وعرضه حتى آخر مقاتل.

تم إخضاع كردفان بواسطة قوات الدفتردار في ذي القعدة 1236هـ/ أغسطس 1821م، والذي عمل بعد ذلك على الاستعداد لغزو دارفور، وهي المرحلة الثانية

بحسب الخطة الموضوعة من قبل الباشا في مصر والمتمثلة في السيطرة على كردفان أولاً ثم دارفور في المرحلة الثانية، ولكن تم تعديل هذا المخطط، وقد كتب محمد علي باشا لابنه إبراهيم يخبره أنه قد تسرع في البداية عندما فكر في ضم كردفان، وبعد غزو كردفان أصبح الباشا على علم بكل تفاصيل الإقليم مترامي الأطراف، وبعد السيطرة على وسط السودان، وسنار وفازغلي أصبح أمر السيطرة على دارفور غير وارد ، وذلك لأن عملية الغزو تحتاج للكثير من القوات والاموال، ولذلك فضل محمد علي باشا التركيز على وسط السودان وسنار وفازوغلي[27].



خريطة السودان تبين طريقي اسماعيل باشا والدفتردار

خريطة رقم (1) تبين الطرق التي سلكتها حملة إسماعيل والدفتردار لغزو السودان

لم يصطحب الدفتردار أي شخص من الأوربيين في غزوه لإقليم كردفان، ومرد ذلك أنه لم يكن يرغب في أن يشاركه أحد في المجد والفخر في حالة بسط سيطرته على الإقليم المهم والاستراتيجي، وقد كتب العديد من الرسائل لمحمد علي باشا حول السودان وموارده وثرواته، كما قام برسم خريطة عن السودان، ولكنها لم تكن بجودة الخرط ودقتها في ذلك الوقت[28].

صرف النظر عن غزو إقليم درافور:

منذ أن سيطرت قوات الدفتردار على إقليم كرفان، كان السلطان محمد الفضل سلطان دارفور يعمل على إعداد وتجهيز قواته لصد الغزو المحتمل من قبل الدفتردار[29] وقد كانت دارفور هدفاً رئيساً للغزو بعد كردفان من قبل محمد علي باشا والدفتردار وذلك بغرض القضاء على السلطان محمد الفضل، ولوقف زحف الدفتردار على دافور أرسل السلطان محمد الفضل جيشاً بقيادة أبولكيلك، بغرض محاربة الدفتدرار واسترجاع الأبيض، والتقى الجيشان في منطقة سودري وتمكن الدفتردار من هزيمة قوات أبولكيلك[30].

عمل السلطان محمد الفضل سلطان الفور على استعادة إقليم كردفان وبسط سيطرته عليه مرة أخرى وذلك من خلال تجميع قواته لاستعادة كردفان، لكنه لم ينجح في ذلك بسبب تمسك الدفتردار بالإقليم[31].

بعد ذلك ونتيجة للعديد من العوامل الداخلية والخارجية صرف محمد علي باشا نظره ولو مؤقتاً عن فكرة غزو دارفور بعد بسط سيطرته على كردفان بواسطة قوات محمد بك الدفتردار، ولعل من أهم الأسباب الخارجية أن السلطان العثماني أخبر محمد علي باشا بحركة التمرد التي قامت ضده في (المورة)، وأنه يتوقع إذا استمرت حركة العصيان ضد السلطان العثماني في أوربا فإنه سوف يوكل إليه المزيد من المهام، بالإضافة لمهة الإشراف عل جزيرة كريت، ولذلك طلب من ابنه إبراهيم صرف النظر عن غزو دارفور، وقد استمرت دارفور خارج سيادة محمد علي باشا حتى تمت السيطرة عليها في عهد الخديوي إسماعيل بواسطة الزبير باشا رحمة[32].

الهوامـــــش:

(1) عوض عبدالهادي العطا، تاريخ كردفان السياسي، المجلس القومي لرعاية الآداب والفنون، 1973، مرجع سابق، ص 21.

(2) المرجع نفسه، ص11

(3) المرجع نفسه، ص 21-10.

(4) بدر الدين حامد الشامي، السودان بعيون غربية، ج5، مكتبة جرير الورد، القاهرة، 2015م، ص 267.

* قحيف: تقع (قحيف) بالقرب من بلدة التيارة في كردفان، وقد دارت فيها معركة مشهورة بين الفونج والفور، كانت قوات الفونج بقيادة خميس جنقل من المسبعات، والوزير محمد ودتومة، ومحمد أبوالكيلك، والمانجل عبدالله راس تيره وأخوه الأرباب شمام ودعجيب، ودارت المعركة بين الطرفين في منطقة قحيف عام 1747م، وقد هُزم الفونج في هذه المعركة.

(5) إقناتيوس بالما، رحلات في كردفان (1839-1837م)، (ترجمة) أرباب موسى بخيت، دار المصورات للنشر، الخرطوم، 2019م، ص 20.

6) إقناتيوس بالما، مصدر سابق، ص 21.)

(7) محمد سعيد القدال، تاريخ السودان الحديث، 1956-1821م، مطبعة جامعة الخرطوم، الخرطوم، ص 54.

* ذكر ريتشارد هل أن حملة الدفتردار تتكون من 3000 ألف رجل و13مدفعاً انظر: Ricar Hill op-cit.p.12.

إقناتيوس بالما، مصدر سابق، ص 21. (8)

(9) مكي شبيكة، السودان عبر القرون، دار الجيل، بيروت، 1991م، ص 111.

* دفتردار: كلمة فارسية الأصل دخلت اللغة التركية، وتتكون من من مقطعين، دفتر بمعنى سجل الحسابات، ودار بمعنى صاحب أو حامل، وكلمة دفتردار تعني المسؤول عن الشؤون المالية، واستخدمت في اللغة العربية بمعنى مأمور المالية. وقد شاع استخدام كلمة دفتردار في العصر العثماني في الولايات التي خضعت للعثمانيين، ثم أطلق لقب الدفتردار على وزير المالية المركزي، انظر الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي، مجموعة مؤلفين، ج6، ص16.

(10) ريتشارد هل، معاجم تراجم أعلام السودان منذ أقدم العصور حتى عام 1948م، (ترجمة) سيف الدين عبدالحميد، شركة مطابع السودان للعملة، الخرطوم 2016م، ص357.

(11) جمال بدوي، كان وأخواتها، مشاهد حية من تاريخ مصر الحديث، مؤسسة انترناشونال برس، 1986م ص، 28.

(12) عوض عبدالهادي العطا، مرجع سابق، ص 22.

(13) الأمين محمد سعيد، مرجع سابق، ص 60.

(14) الأمين محمد سعيد، مرجع سابق، ص 61-61.

(15) ريتشارد هل، مصدر سابق، ص357.

(16) الأمين محمد سعيد، مرجع سابق، ص 61

(17) محمد سعيد القدال، تاريخ السودان الحديث، 1820-1955م، دار جامعة الخرطوم للنشر، الخرطوم 2018، ص53.

(18) هارولد ماكمايكل، قبائل شمال ووسط كردفان، (تعريب) سيف الدين عبد الحميد، مركز عبدالكريم ميرغني، أم درمان، مطبعة السودان للعملة. الخرطوم، ط2، 2007م، ص 51.

(19) محمد فؤاد شكري، مصر والسيادة على السودان، الوضع التاريخي للمسالة، دار الفكر العربي، القاهرة (ب.ت)، ص 5.

(20) محمد سعيد القدال، مرجع سابق، ص 54.

(21) مكي شبيكة، السودان عبر القرون، ص 112.

(22) الأمين محمد سعيد، مرجع سابق، ص 61.

(23) محمد سعيد القدال، تاريخ السودان الحديث، مرجع سابق، ص 54.

(24) هارولد ماكمايكل، مرجع سابق، ص 51

(25) المصدر نفسه، ص 22.

* إبراهيم ود دير من قبيلة دار حامد وقد كان من أميز المحاربين في قوات المقدوم مسلم وفي معركة بارا تحديداً،أنظر قبسات من سيرة آدم بك العريفي، محمد التجاني عمر قش، سودانيل، 14 مارس 2022م.

(26) نعوم شقير، مصدر سابق، ص 507-506.

(27)الأمين محمد سعيد، مرجع سابق، ص 63-62. (27)

(28) نعوم شقير، مصدر سابق، ص 207.

(29) أحمد أحمد سيد أحمد، مرجع سابق، ص 65.

(30) نعوم شقير، مصدر سابق، ص 507.

(31) رأفت غنيمى الشيخ، السودان ومصر في العلاقات الدولية، عالم الكتب، القاهرة، (ب.ت)، ص77.

(32) الأمين محمد سعيد، مرجع سابق، ص 63..

الفصل الثالث
فظائــع الدفتــردار في كردفــان

الفصل الثالث
فظائــع الدفتـردار في كردفــان

فظائع الدفتردار في مدينة بارا:

بدأت فظائع الدفتردار تجاه أهالى كردفان بصورة واضحة من خلال فرض الضرائب الباهظة. وتمت ملاحقة قبائل البقارة والنوبا، لدفع ماتقرر عليهم من ضرائب، وبدأ إرهاب الدفتردار للأهالي لدفع الضرائب وجمع الأبقار والأبل من كردفان بغرض إرسالها لمصر[1].

تقع مدينة بارا في شمال كردفان وتحديداً شمال مدينة الأبيض، وتمتاز بارا بخصوبة تربتها وجودة مياهها، وبها نبع من المياه يسمى (العاتيك)[2]. اختلفت الآراء حول أصل تسمية المدينة، وهي عبارة عن واحة، اشتهرت بالزراعة، تعد مدينة من أهم حواضر إقليم كردفان بعد مدينة الأبيض.

بدأت فظائع الدفتردار تجاه أهالي كردفان منذ أن تحرك قاصداً الإقليم، وظهرت بصورة واضحة بعد انتصاره ضد قوات المقدوم مسلم، فبعد معركة بارا والانتصار فيها استمرت قوات الدفتردار في مطاردة الفارين من مقاتلي كردفان، كما مارسوا أقصى صنوف التعذيب أبرزها قطع أذنين، وقد كان الدفتردار يدفع جائزة لكل من يحضر أذنين[3].

بعد دخول قوات الدفتردار لمدينة بارا عمل الجنود على معاملة الأهالي بمنتهى القسوة والوحشية، كما قاموا بسلب حلى النساء، وقاموا كذلك بنهب الماشية لتموين الجيش، وقتل ألفان من أهالى كردفان[4].

استولى الدفتردار على 1200 من رقيق المقدوم مسلم، وأرسل منهم 800 إلى مصر. وطلب من سكان القرى في كردفان تسليمه 2000 من الرقيق[5]، وتمكنت قواته من دخول مدينة بارا في أغسطس من العام 1821م، ثم تحركت بعد ذلك نحو مدينة الأبيض واتخذها الدفتردار عاصمة له[6].

فظائع الدفتردار في مدينة الأبيض:

دخل الدفتردار مدينة الأبيض وأعلن نفسه حاكماً على كردفان ومسؤولاً مسؤولية مباشرة عنها لدى محمد علي باشا. وهناك قام بوضع أسس الإدارة العسكرية الجديدة، وهاجم جبال النوبة من أجل الحصول على الرقيق[7].

بلغ عدد سكان كردفان قبل الغزو حوالي أربعين ألف نسمة. وقد عمل الدفتردار على تقليص هذا العدد بالقتل، والتهجير، فهربت مجموعات كبيرة من السكان خوفاً من بطش الدفتردار. وأصبح اسم الدفتردار مخيفاً في الأبيض وجميع مناطق كردفان وسنار وغيرها من المناطق، وحولت فظاعته الإقليم الذي كان من أكثر أقاليم السودان إنتاجاً ووفرة إلى أكثر الأقاليم فقراً[8].

نماذج لفظائع الدفتردار:

1. سرق أحد جنود الدفتردار خروفاً من مزارع، وعندما لم يتمكن المزارع من استرداد خروفه اشتكى للدفتردار وكان الدفتردار يستمع لشكوى المزراع، وبعد انتهاء المزارع من تقديم شكواه قال له الدفتردار: (... لقد أزعجتني بهذه الترهات...)، وعندها طالب الدفتردار من جنوده إحضار المدفع، وأن يقوموا بربط المزارع المسكين أمام فوهته ويطلق عليه النار.

2. وفي حادثة أخرى تدل على بشاعة الدفتردار، كان له خادم يعمل على إعداد الطعام له، وفي مرة من المرات أدخل الخادم أصبعه في طعام الدفتردار الذي شاهد هذا الأمر، فما كان منه إلا أن طالب بتسمير لسان الخادم على الحائط لمدة ساعتين ولسانه محاط بالعسل بغرض إثارة شهوته. وبعد ذلك تم انتزاع المسمار من لسانه، واحتاج الخادم لعدد من الأيام لكي يندمل الجرح الذي خلفه المسمار في لسانه.

3. في إحدى جولات الدفتردار على حصانه في شوارع مدينة الأبيض تأخر السايس عن مجاراة الفرس الذي يركب عليه الدفتردار، فما كان من الدفتردار، إلا أن قام بضرب السايس بالسوط، لكنه لم يتمكن من مضاعفة سرعته. وفي نهاية الأمر تم ربطه خلف الحصان، وتفسخ جسم السايس، نتيجة لهذا الإجراء، وتسبب له بعاهة مستديمة.

4. قام أحد سكان الأبيض بضرب جاره على أذنه الأمر الذي جعل الشخص المضروب يتقدم بالشكوى للدفتردار الذي سأل الشخص المخطئ عن اليد التي ضرب بها

جاره، وتم سلخ راحتها. وعندما قال للدفتردار أنه لن يتمكن من العمل بها مرة أخرى غضب الدفتردار وأمر بقطع لسانه لانه أعترض على حكمه.

5. قام أحد خدم الدفتردار بسرقة تبغه، وعندما علم الدفتردار بذلك أمر بضربه حتى الموت.

6. كان أحد المزارعين مطلوباً للحكومة مبلغ 40 ريالاً فما كان من شيح الحلة إلا أن قام بأخذ الثور الوحيد للمزراع وأحضر جزار وذبح الثور وقسمه على الأهالي، وجمع الأربعين ريالاً عندما تقدم المزارع بكشوى للدفتردار ضد شيخ القرية، وفي الحال ذهب الدفتردار للقرية وأمر بذبح شيخ القرية وأن يقسمه لحمه على أربعين كوماً، وكل شخص أشترى من لحم الثور يشترى من لحم الشيخ، وتم إرجال المال للمزارع.

7. في عيد الأضحى تقدم عدد من الأشخاص الذين يعملون مع الدفتردار ليتم صرف الأحذية عليهم، لكن هذه المرة كان للدفتردار رأي مختلف، حيث طلب من البياطرة صنع 18 حدوة، وتم تجهيزها وإلباسها لهم، فمات من مات منهم، ومن نجى أمر الدفتردار بخلع الحدوات عنهم وتمت معالجتهم لكن سببت عاهات مستديمة للكثير منهم.

المتتبع لسلسلة الفظائع التي قام بها الدفتردار يلحظ أن هذا الشخص قد قام بها في كل من صعيد مصر والسودان. وهذه الفظائع أصبحت من صفات الدفتردار الملازمة له. وبالإضافة لما تمَّ سرده من فظائع، فقد أمر الدفتردار بقطع الأعضاء التناسلية للعديد من الأشخاص في الأبيض، وكل من وقف أمامه ظالماً أومتظلماً كان يتعرض للعقاب من قبل الدفتردار، وقد وصلت فظائع الدفتردار في كردفان والأبيض إلى معظم مناطق السودان وسنار والقاهرة، وكان محمد علي باشا على علم بكل ما يقوم به الدفتردار[9].

تمكن الدفتردار من جمع الكثير من الأموال من الأبيض وكردفان في فترة وجيزة، وبعد تزايد فظائعه في كردفان أرسل محمد علي باشا لجنة للاطلاع على الشكاوى التي كانت تصل من الأهالي ضد الدفتردار، ولكن هذه اللجنة لم تتمكن من تأدية مهمتها بالشكل الأمثل[10].

ما أورده الرحَّالة اقناتيوس بالما عن فظائع الدفتردار في مصر والسودان، وتنوع هذه الفظائع يدل على حب الدفتردار للتسلط والتنكيل بالأهالي العزل، والعاملين الذين يقومون بخدمته.

بعد استكمال غزو كردفان كتب محمدعلي باشا للدفتردار يطلب منه الحصول على أكبر قدر من ثروات ومعادن كردفان، وأن يعمل على إرسالها لمصر: (... وبما أن بلاد مثل كردفان دخلت بأقل همة في حوزة حكمنا...فلا تدخر وسعاً في بذل جواهر رشدكم...على ماهو واجب في شأن الحكم على ناصية أحوالها، بضبط أطرافها وربط أكنافها، بشأن استنباط ماهو لازم من مناجمها، والعلم بما ينفع من حاصلاتها ومعرفة كل خفي وجلي من منافعها...)[11].

وطلب محمد علي باشا من الدفتردار أيضاً القيام بمسح شامل للمناجم والمحاصيل الزراعية، ومعرفة كل التفاصيل الدقيقة عن إقليم كردفان، الأمر الذي يدل على رغبة الباشا في استغلال هذه الثروات على أكمل وجه[12].

كان الباشا يعتقد جازماً أن كردفان تمتلك كميات وفيرة من الثروات المعدنية، وقد ذكر للدفتردار هذا الأمر، وبيَّن له مدى حرصه للحصول عليه: (... إن المعدن هو المطلب الأصلي...)، وهو أمنيته وقمة مطلبه، ويتضح من حديث محمد علي باشا أن همه الحصول على المعادن بمختلف أنواعها من مناطق السودان المختلف بما فيها كردفان[13].

وتأكيداً على حرص محمد علي باشا الشديد على الحصول على الرجال باعتباره هدفاً أساسياً من أهداف الغزو، كتب إلى الدفتردار في هذا الخصوص قائلاً: (... لما كانت الغاية المرجوه من هذا كله منحصرة في جلب العبيد بكثرة ووفرة فإن مقصودنا أن تدبروا هذا الأمر على الوجه الذي تقتضيه غيرتكم...)[14].

وفي خطاب آخر بتاريخ 16 محرم 1239هـ / 22 سبتمبر 1823م كتب محمد علي باشا لمحمد بك الدفتردار يطلب منه الحصول على أكبر قدر من الرقيق من كردفان: (... تعلمون أن المراد والمقصود من المجهودات التي بذلت والمهمات التي صرفت حتى الآن هو أمر العبيد، فلأن هذه هي النتيجة المأمولة، وهذه هي الغاية المطلوبة، نطلب منكم أن تتخذوا الإجراءات اللازمة للحصول على عدد كبير من العبيد، وتحصلوا عليهم بكثرة وترسلوا ما أمكن الحصول عليه حالاً، وتأخذوا من يتأخر منهم

وتحضروه معكم....والخاصة نطلب منكم ألا تجيزوا التسامح في هذا الشأن بأي وجه من الوجوه، وأن تتخذوا التدابير اللازمة للحصول عليهم بكثرة، وان تظهروا الغيرة التي عهدناها منكم في هذا الشأن أيضاً..)[15].

عمل الدفتردار على جلب الرقيق من كردفان وفقاً لرغبة محمد علي باشا الذي كان يلح على الدفتردار بهذا الخصوص، وقد قام بشن الغزوات في مختلف مناطق كردفان للحصول على أكبر عدد من الرقيق، وعندما بدأت مجموعات الرقيق تصل إلى أسوان كتب محمد علي باشا إلى كل من حاكم دنقلا، وقنا، وناظر مصلحتي أسوان وفرشوط، يأمرهم بالاهتمام بالرقيق الوافدين من السودان[16].

وفي العام 1239هـ/1824 أصدر الباشا مرسوماً بسبب زيادة أعداد الرقيق التي وصلت من السودان وكردفان، يأمر فيه بجمع كل السفن الراسية، ابتداء من القاهرة وحتى أسوان مهما كان حجمها، ومهما كان صاحبها، وذلك بغرض نقل الرقيق، ولتحقيق راحة الرقيق الواصلين من السودان عمل محمد علي باشا على إنشاء العديد من الثكنات قرب أسوان، ودراو، وفي (كوم أبوها) في منفلوط، وقد بلغ عدد الرقيق بعد أربع سنوات من غزو السودان أربعين ألفا من الرقيق. وقد استخدمت أبشع الطرق والوسائل للحصول على الرقيق من كردفان وبعض مناطق السودان، وبعد أن تتم عملية الصيد يساقون بطريقة وحشية وعلى أقدامهم لمسافات تبلغ ما بين 90-80 ساعة، ونتيجة للتعب والإعياء يهلك عدد كبير من الرقيق، وهناك عامل آخر أسهم في موت عدداً كبيراً من الرقيق وهو قلة الطعام، إذ لم يكن هناك اهتماماً كبيراً بالرقيق عند اصطيادهم من مناطقهم الأصلية. وهناك ملاحظة في عملية الرقيق وهي أن الرق لم ينحصر في الرجال للتجنيد، بل كان من ضمن أهداف الباشا الحصول على أكبر عدد من النساء لتصبح أيدي عاملة في المشاريع الزراعية وهي عمالة رخيصة، وكذلك يستخدم النساء والأطفال في الأنوال وصناعة النسيج، ويباع عدد من الرقيق للنخاسين مما أسهم في دعم خزينة الدولة بالمال.

نجد مما سبق أن الحصول على الرقيق كان هدفاً رئيساً من أهداف غزو محمد علي باشا للسودان، وقد عمل الدفتردار على الحصول على أكبر عدد من الرقيق بمختلف الوسائل والطرق بغرض إرضاء الباشا في مصر، الأمر الذي أرهق السكان المحليين وجعلهم في حالة هروب مستمر خوفاً من الوقع في براثن الرق والعبودية.

وتمثل الهدف الثاني من أهداف حملة غزو كردفان ضم كل إقليم درافور والقضاء على سلطنة الفور، لكن للعديد من الأسباب والتي منها حرق إسماعيل في شندي، والاضطرابات التي حدثت بعد مقتله في وسط السودان تم التخلي عن فكرة غزو سلطنة الفور، واكتفت قوات الغزو بالسيطرة على إقليم كردفان[17].

تعرض جنود حملة الدفتردار في كردفان للعديد من المصاعب مثل الأمراض، والمناوشات من قبل الأهالي، وتقلبات المُناخ، الأمر الذي أدى إلى موت نصفهم[18].

مدينة الأبيض:

تعد مدينة الأبيض من أشهر المدن التجارية على نطاق السودان وأقدمها، وتقع الأبيض في سهل فسيح، وقد وازدهرت هذه المدينة في جميع عهودها، وكانت من أميز المدن في كردفان[19].

ويمكن القول أنها أهم مدينة في إقليم كردفان منذ وقت بعيد، وذلك لأهميتها التجارية والاقتصادية والحضارية والاجتماعية، حيث كانت ترتبط بطرق تجارية مع دارفور وغرب أفريقيا، ودنقلا، وسنار، كما أنها أصبحت نقطة انصهار لمجموعات قبلية مختلفة امتزجت في هذه المدينة العريقة، وقد أسهمت التجارة، بأنواعها المختلفة، في تطور المدينة بصورة ملحوظة، حيث ظهرت المدينة بصورة واضحة في عهد سلطنة المسبعات، وهي تشبه المدن السودانية التي أسهمت التجارة دوراً مهماً في ظهورها وتطورها، كما أن المدينة حافظت على مكانتها التجارية عبر مختلف الحقب التاريخية، وكانت أهم حواضر إقليم كردفان.

بعد الانتصار على قوات المقدوم مسلم دخلت قوات الدفتردار مدينة الأبيض، وتعرضت المدينة للنهب والسلب، وقد وجد الدفتردار نفسه أمام كنز لا يقدر بثمن، وذلك لثراء المدينة وأهميتها الاقتصادية والتجارية والاستراتيجية[20].

دخلت قوات الدفتردار بعد سيطرتها على مدينة الأبيض في مواجهة أخرى مع أهالي كردفان، وخاضت حرباً ضد قبيلة الحمر، وكان النصر حليفاً لقوات الغزو في هذه المرة أيضاً، وبعد ذلك بسط الدفتردار سيطرته على معظم كردفان. واتصف بالوحشية والأعمال غير الإنسانية، وقد كان الحصول على الرجال والمال من أهم أهدافه هو ومن معه من قوات، وكان الوضع في الأبيض وعموم كردفان في عهد الدفتردار كارثي بمعنى الكلمة[21].

بعد أن بسط الدفتردار سيطرته على إقليم كردفان، عمل على تقسيم الإقليم لخمس أقسام إدارية على رأس كل قسم كاشف أو زعيم، والأقاليم هي: خرس، وكشعر، وأبوحراز، وديرا، وقد بقيت منطقة جبال النوبا خارج هذا التقسيم. وكانت الإدارة المركزية للإقليم في مدينة الأبيض مما انعكس سلباً على حياة الناس ومعاشهم، وقد اختفت مظاهر الرغد وطيب العيش الذي كان يتمتع به أهل الأبيض وكردفان قبل مجئ الغزو التركي، وقد هجر الأهالي القرى إلى دارفور وجبل تقلي[22].

اتصفت شخصية الدفتردار، كما ذكرنا سابقاً، بكل أنواع البطش والتنكيل والعنف والوحشية، وقد ظهر ذلك جلياً في عدد من المواقف تجاه سكان أهالي كردفان نذكر منها:

جاء إلى الدفتردار أحد شيوخ كردفان يخبره بنضوج أحد حقول الدخن التي يمتلكها، فما كان من الدفتردار إلا أن اتهم الرجل بأنه ينوي أن يأكل من حصاد حقله، فأمر بخلع أسنانه[23].

تفنن الدفتردار في فرض الضرائب وطرق جمعها من أهالي الأبيض وكردفان، وكان الشخص الذي لا يستطيع دفع الضرائب عيناً أونقداً عليه دفعها رقيقاً، واستمرت الحكومة في اصطياد الرقيق من جبال النوبة حسب رغبة الباشا في مصر[24].

اهتم الدفتردار في كردفان بصورة عامة وفي مدينة الأبيض على وجه الخصوص بسلب مقدرات القبائل، وذلك بجمع الضرائب، وهذا الأمر من سمات الحكم التركي في السودان عامة، وقد كان الأهالي لايعرفون الضرائب بشكلها الفادح في فترة الممالك الإسلامية في السودان.

فكر محمد علي باشا بصورة جادة في التخلص من إقليم كردفان، والتركيز على مناطق سنار وشمال السودان، ولعل سبب ذلك رغبته الأكيدة في الحصول على الذهب والرجال، وجاء في خطاب محمد علي باشا للدفتردار بعد أن سرد تفاصيل حملة الدفتردار من شمال الخرطوم حتى شندي وبربر: (...فيا ولدي العزيز قد انتهت هذه المهمة إلى هذه النتيجة إذا كانت الإرادة الآلهية قضت بذلك. وما علينا في هذا الأمر إلا أن نصبر صبرا الهياً ونجتهد اجتهاداً إنسانياً، لذلك أسند منصب سر عسكرية السودان على عهدة حمايتكم فاروني حميتكم وإحيلوا إدارة كردفان إلى ملك مناسب من ملوك الولاية على سبيل المقطوعية، واذهبوا أنتم إلى سنار واجلبوا إليها الجنود

الذين كانوا تحت امرتكم بكردفان، واحضروهم عندكم، ثم خذوهم معكم حتى إذا وصلتم إلى سنار فافحصوا كيفية إدارة الجزيرة (سنار)، وتدبروا فيها، وانشئوا بروجا في الأماكن المناسبة، واقيموا فيها عددا من الرجال... فاذهبوا إليها (يقصد شندي) التي اشتهرت بلطافة الجو وأسكنوها حتى يحل موسم الأمطار. حتى إذا انقضى أوان الأمطار فعودا إلى سنار واشتغلوا بتسوية الشؤون حتى كما تقتضيه الأحوال... واعلم أننا فوَّضنا مصالح سنار إلى عهدة حميتك ريثما نولي عليها سر عسكر في السنة المقبلة ونرسله إليها[25].

وجه محمد علي باشا محمد بك الدفتردار بعد مقتل ابنه إسماعيل حرقاً في شندي من قبل الملك نمر مك الجعليين في نهاية العام 1822م بأن يعمل على إعطاء كردفان لأحد السلاطين أو الملوك على سبيل الإقطاع، وذلك بغرض أن تتفرغ الإدارة الجديدة لحكم سنار، وقد كان للدفتردار رأي مختلف، حيث قال للباشا إن كردفان لم يعد بها من يستطيع حكمها، ولذلك ترك حامية عسكرية في الأبيض بغرض حفظ الأمن ورجع إلى سنار[26].

يتضح من رد الدفتردار أنه نجح في التخلص من الزعماء المحليين الذين يمكن أن يعملوا على إدارة كردفان بقوة وحنكة، والدليل على ذلك قوله لمحمد علي بأنه لا يوجد من يحكمها.

كذلك طلب محمد علي باشا من محمد بك الدفتردارأن يعمل على تأمين سنار العاصمة وأن يحصِّنها بالأبراج في المواقع المناسبة، وأن يدعم هذه الأبراج بالقوات الكافية، ومنذ مقتل إسماعيل أصبح الدفتردار يحمل لقب سر عسكر السودان وكردفان بدلاً عن سر عسكر كردفان فقط، كما كان مسؤولاً عن إدارة سنار وكردفان[27].

مما سبق نجد أن محمد علي باشا قد اهتم بتأمين مدينة سنار خوفاً من الثورات التي اندلعت في مناطق السودان المختلفة، كما أنه خاف من أن يتكرر مصير ابنه إسماعيل على باقي قواته التي كانت موجودة في السودان في ذلك الوقت، لذلك طلب من الدفتردار تأمين سنار، وهناك أمر مهم آخر هو أن مقتل إسماعيل باشا قد رفع الدفتردار من قائداً لسر عسكر كرفان لقائداً لسر عساكر كردفان والسودان، ولتثبيت سلطته الجديدة ارتكب العديد من الفظائع تجاه السودان وأهله.

الهوامــش:

(1) عوض عبدالهادي العطا، مرجع سابق، ص 23.

(2) نعوم شقير، جغرافية وتاريخ السودان، مصدر سابق، ص 126..

(3) محمد سعيد القدال، تاريخ السودان الحديث، ص 54.

(4) الأمين محمد سعيد، مرجع سابق، ص 62.

(5) محمد سعيد القدال، تاريخ السودان الحديث، ص 97.

(6) أحمد أحمد سيد أحمد، تاربخ مدينة الخرطوم، ص 65.

(7) رتشارد هل، مصدر سابق 357.

(8) بالما، مصدر سباق، ص 23.

(9) المصدر نفسه، ص 27-23.

(10) المصدر نفسه، ص 28.

(11) محمد سعيد القدال، تاريخ السودان الحديث، ص 99-98.

(21) محمد الأمين سعيد، مرجع سابق، ص 37.

(31) المرجع نفسه، ص 39.

(41) عوض عبدالهادي العطا، تاريخ كردفان السياسي، المجلس القومي لرعاية الآداب والفنون، الخرطوم، 1973م، ص22.

(51) الأمين محمد سعيد، مرجع سابق، ص 177.

(16) المرجع نفسه، ص 37.

(71) محمد إبراهيم أبوسليم، الفور والأرض وثائق تمليك، إصدارات مركز أبوسليم للدراسات، الخرطوم، 2006م، ص15.

(81) عبدالله حسين، السودان من التاريخ القديم إلى رحلة البعثة المصرية، ج1، موسسة هنداوي، القاهرة، 2012، ص110.

(91) نعوم شقير، جغرافية وتاريخ السودان، مصدر سابق، ص 126.

(20) إقناتيوس بالما، مصدر سابق، ص 22.

(21) هارولد ماكمايكل، مرجع سابق، ص 52..

(22) إقناتيوس بالما، مصدر سابق، ص 23.

(32) محمد سعيد القدال، تاريخ السودان الحديث، ص 55.

(24) عوض عبدالهادي العطا، مرجع سابق، ص 22.

(25) محمد إبراهيم أبوسليم،الفور والأرض، مرجع سابق، ص 24-23.

(62) خوجلي أحمد صديق، مرجع سابق، ص 20-19.

(27) الأمين محمد سعيد ، مرجع سابق، ص 38.

الفصـل الرابــع

فظائع الدفتردار ضد قبيلة الجعليين

الفصل الرابع
فظائع الدفتردار ضد قبيلة الجعليين

مدينة شندي في عهد الفونج:

تقع مدينة شندي شمال الخرطوم وهي من أهم المدن التجارية في العهد السناري، وقد كانت المدينة ملتقى لجميع طرق النيل التجارية، فمنها يبدأ الطريق المؤدي إلى بلاد الشرق الأقصى، وكذلك طريق القوافل التجارية المتجهة إلى غاية كردفان ودارفور ووداي و(تمبكتو) في شمال مالي، وكذلك ينطلق منها طريق القوافل إلى مصر عبر بربر، ويمكن الوصول إلى الحبشة والبحر الأحمر عبر شندي، وقد كان الحجاج يأتون من وسط أفريقيا وغربها إلى شندي بغرض الوصول إلى الحجاز[1].

وكانت تفد إليها القوافل التجارية من دارفور وكردفان وسواكن ومدن سنار الداخلية، وقد ذكر بوركهارت أن شندي تعد أول مدينة تجارية في أفريقيا جنوب مصر وشرق دارفور، وترتبط مع مدينة بربر بصلات تجارية قوية جداً[2].

وقد اشتهرت قوافلها بالسير نحو القاهرة، وكانت البضائع المعروضة بسوقها تعد من أجود وأرخص الأنواع مقارنة بسوق سنار[3].

سوق شندي:

كانت لمدينة شندي سوق كبير يعمل على مدار الأسبوع، وهناك سوق آخر أسبوعي، ويتم تداول العملة الإسبانية والدمور والذرة، أما الجمال والرقيق فيتم شراؤها بالريال الأسباني، وكان الريال الأسباني يعد من العملات المعترف بها في سوق المدينة، وفي الريالات الأسبانية يحبذون الريال الذي يحمل اسم (كارلوس الرابع)، ويسمونه (الريال أبو رابع)[4].

ومن السلع التي اشتهر بها سوق شندي البهارات، وحطب الصندل الذي كان يستورد من الهند، بالإضافة إلى الكحل والسيوف الألمانية، والمصنوعات الجلدية، التي كانت تأتي من سنار وكردفان، وبعض الخرز الذي كان يأتي من (جنوة والبندقية) في إيطاليا، والصابون الذي كان يتم احضاره من مصر، والملح، والذهب من أثيوبيا، والخيول من

دنقلا، وقد كانت المتاجر عبارة عن زنزانات صغيرة ذات سقف من الحصير والسعف، وقد أمَّ السوق عدد كبير من العرب وبعض سكان شمال ووسط وشرق أفريقيا[5].

البضائع الهندية في مدينة شندي:

بالإضافة للبضائع سابقة الذكر فان شندي كانت ترد إليها البضائع الهندية، وقد ذكر الرحَّالة (بوركهارت) أنه عند زيارته لمدينة شندي شاهد العديد من أنواع القماش في سوق المدينة، وقد كان يتم إحضاره من الهند، وقد كانت الثياب الهندية من أجود أنواع الثياب، ولا يلبسها إلا الطبقة الأرستقراطية في شندي وسنار وكردفان، بالإضافة للدبلان والشاش، وهي من أنواع القماش القطني الهندي، كذلك وجد العديد من أنواع العطور الهندية والحرائر حيث يعد تجار شندي التجار الوحيدين في توريد هذه المنتجات. وبالإضافة للعطور والأقمشة فقد كان التجار في شندي يستوردون الخرز والسوميت والكهرمان وكلها من الهند، ويقومون ببيعها في دارفور ودار صالح وبرقو[6].

كانت هناك علاقة وثيقة بين كل من شندي وبربر من الناحية التجارية والاقتصادية، وقد شكَّلت المدينة مع بربر أكبر الأسواق في شمال السودان، كما أن السلع والبضائع السنارية كانت تصل إلى شندي من سنار عبر أربجي والحلفايا، ثم عبوراً من شندي إلى بربر التي تنطلق منها القوافل إلى مصر عبر دنقلا و دار، ثم من بربر إلى سواكن التي كانت تعد المدينة التجارية الساحلية المهمة ومنفذ الدولة السنارية نحو العالم الخارجي.

الدفتردار في شندي:

شهدت الفترة الأولى بعد غزو محمد علي باشا للسودان، الكثير من القلاقل والحروبات في مختلف مناطق السودان، وظلت قواتهم في حالة حركة مستمرة لقمع وإسكات هذه الثورات، والسيطرة على المناطق التي لم يتمكنوا من بسط نفوذهم عليها، وقد تم توزيع الحاميات على مختلف المناطق والمدن السودانية بغرض تأمينها[7].

وهناك ملاحظة مهمة وهي أن قوات إسماعيل باشا قد نكلت بمجموعات الشايقية والقبائل التي وقفت إلى جانبهم لمواجهة الجيش الغازي، وقد تفننت هذه القوات في اسليب القتل والتعذيب وغيره ضد المجموعات السودانية.

بعد حادثة حرق إسماعيل بن محمد علي في شندي* من قبل الملك نمر في1238هـ/ 1822م، وقيل أن سبب هذه الحادثة أن إسماعيل باشا طلب من الملك نمر وهو في طريق

عودته نحو القاهرة قادماً من سنار، أن يعد له الملك نمر آلاف من الرقيق، والجمال، والخيول والعملة، واشترط على أن يتم تسليم هذه الكميات خلال يومين. عندها أعلن الملك نمر عدم مقدرته على تلبية تلك المطالب، فغضب إسماعيل باشا وقام بضرب الملك نمر بغليونه، وحاول الملك نمر رد الإهانة في وقتها، لولا تدخل الملك المساعد الذي طلب من الملك نمر التريث، وأن يتظاهر بالاستجابة لجميع مطالب إسماعيل. انتهت المقابلة بين إسماعيل باشا والملك نمر بقبول الأخير مطالب الباشا ولكنه في حقيقة الأمر أضمر الانتقام من إسماعيل عندما تحين الفرصة، بعدها قدم الملك نمر لإسماعيل باشا الدعوة لتناول وليمة أعَّدها له صحبة قواته، ووافق إسماعيل، وعندما كان الجميع منهمكاً في تناول الوليمة قام الملك نمر وأتباعه بإحاطة المنزل الذي كانت فيه الوليمة بالهشيم والحطب والأعشاب الجافة وأشعلوا النار فيه، ونتيجة لذلك احتراق إسماعيل ومن معه[8].

وصلت الأخبار المزعجة عن مقتل إسماعيل واندلاع الثورة في مناطق النيل إلى الدفتردار في الأبيض. ونتيجة لهذه الحادثة أصبح الدفتردار على الفور مسؤولاً عن القوات التركية في السودان. ودون انتظارا أي أوامر من القاهرة التي انقطع الاتصال بينها وبين سنار وشمال السودان قاد قوة ضاربة من كردفان إلى النيل[9].

وبعد حرق إسماعيل باشا توجهت قوات الملك نمر والملك المساعد نحو باقي القوات المرافقة لإسماعيل حول النيل وفي البر وتم القضاء عليها، وكانت خطة الدفتردار التحرك نحو الملك نمر والقضاء عليه، ولذلك أصدر أوامره لكل القوات بأن تحرق وتقتل أي شخص في مناطق الجعليين، ثم أصدر الأوامر أيضاً لكل من محو* بك مدير بربر، والملك شاويش بعض المصادر تقول أن اسمه (شاؤس) وليس شاويش ملك الشايقية وولد جنقال، وقد كانت مع الملك شاويش ما يقارب الألف فارس تحرك بها من ودمدني نحو المتمة[10].

كانت لحادثة مقتل إسماعيل باشا حرقاً على يد الملك نمر وقبيلة الجعليين مفعول السحر وسط أهل السودان، وأسهمت في إضعاف مكانة وهيبة الجيش الغازي وقواته التي انتشرت في مناطق السودان المختلفة، وأدت لبث الرعب في نفوس الكثير من جنود الجيش الغازي[11].

وانتشرت أخبار هذه الحادثة في كل ربوع السودان مما أدى لإندلاع الثورات ضد الحكم التركي بعد هذه الحادثة مباشرة، وعبر الملك المساعد نهر النيل إلى المتمة وعمل

على مهاجمة الفرقة العسكرية التي كانت تعسكر هناك، ثم زحف مع الملك نمر لمهاجمة قوات محو بك في بربر، ونتيجة لاشتعال الثورة في مختلف مناطق السودان تمت مهاجمة الحاميات التركية في مختلف مناطق السودان[12]. ولمواصلة الثورة ضد الحكم التركي في منطقة وسط السودان، تحرك الأرباب دفع الله* بقواته من ودمدني ونزل بمنطقة عبود، وللقضاء عليه أرسل محمد سعيد أفندى سرية من الفرسان لمطاردته، وعند وصول قوات الحكومة لعبود وجدوا أن الأرباب غادرها فقاموا بقتل محمد عبدالعليم خليفة ودعبود، وقاموا بتخريب المدينة ونهبوا أموالها ورجعوا إلى ودمدني، وصل الأرباب دفع الله إلى أبوشوكة، واجتمع بحسن ود رجب وقواته، عندها أرسل محمد سعيد أفندي حملة أخرى مكونة من قوات الدلتية* والشايقية للقضاء عليهم، وكانت هذه القوات تحت قيادة مصطفى كاشف، الذي تمكن من قتل حسن ود رجب وعمه الشيخ حسين وابنه محمد، وعدد من رجاله، كما تمكن من أخذ الكثير من الغنائم ورجع إلى ودمدني[13].

عمت الثورة مناطق السودان المختلفة، وتمكن الثوار من طرد قوات محمد علي باشا المكونة من الأتراك، والبربر، والأفارقة، والأمريكان والألبان، والسلاف، والأكراد ومجموعات أخرى من القوقاز، وقد كانت تلك المجموعات تمثل العمود الفرقي لجيوش محمد علي في المدن السودانية، وكانت الثورة في قمتها الأمر الذي جعل الدفتردار أمام تحدٍ كبير للقضاء عليها[14].

غادر الدفتردار مدينة الأبيض في مطلع العام 1823م متوجهاً ناحية ديار الجعليين وهو يقسم بأنه سوف يقتل عشرين ألفاً من الجعليين نظير قتلهم لصهره إسماعيل باشا[15]، وبالإضافة لقواته تحركت معه قوات من قبيلة الجمع تحت قيادة محمد لوتان[16]، متجهاً ناحية النيل الأبيض، ومنها إلى ديار الجعليين، وعمد إلى حرق مدن وحواضر الجعليين وهي المتمة، وشندي، وكبوشية، والدامر، وقام بذبح الأهالي، وكل ذلك من أجل الانتقام لمقتل إسماعيل باشا، وبطلب من محمد علي نفسه، كما قام بمساعدة محو بك أورفلي مدير بربر من التنكيل بقبيلة الجعليين[17].

يصف الرحَّالة الألماني بكلر مسكاوي مدينة شندي قبل أن تتعرض للهجوم من قبل قوات الدفتردار، بأنها مدينة مزدهرة وتضم خمسين ألف نسمة من السكان، لكن تعرضت المدينة للحرق والتخريب المتعمد بعد مقتل إسماعيل، أما المتمة فهي

مدينة تشبة إلى حد ما مدينة دنقلا، تعرضت للهجوم من قبل الدفتردار، ولكنها تمكنت من تضميد جراحها وأعاد أهلها تنظيمها في خمسة عشر عام من التدمير الممنهج الذي تعرضت له في عهد الدفتردار[18].

وصف بوركهارت مدينة الدامر في العام 1813م، أي قبل الهجوم عليها من قبل قوات الدفتردار في العام 1823م، أي قبل تسع سنوات، أنها قرية كبيرة تقع على الطريق بين بربر وشندي، وتتكون من حوالي خمسمائة منزل، وتمتاز بالنظافة والترتيب مقارنة بمدينة بربر، وتتميز منازلها بالحداثة، وبها مسجد شِّيد بالطوب الأحمر، وبها عدد من الفقهاء الذين يذهبون إلى مصر للدراسة في الأزهر الشريف، وللمدينة صلات تجارية مع سواكن، ودنقلا، وتتميز بصناعة المنسوجات، والمنسوجات من جريد النخل (السعف)[19].

من خلال مشاهدات الرحَّالة جون لويس بوركهارت نجد أن الدامر كانت مدينة عامرة وكبيرة، تعرضت للهجوم من قبل الدفتردار بغرض كسر شوكة الجعليين وتأديبهم.

بعد وصول الدفتردار للمتمة وجد أهلها مجتمعين ويطلبون منه الأمان فأمنهم، ولكن هجم أحد أفراد الجعليين بحربة وحاول قتله، لكنه لم يتمكن من ذلك. عندها أمر الدفتردار بقتل الجميع، ونتيجة لذلك احتمى بعض الأهالي بخلوة الشيخ أحمد الريح، ولم يشفع لهم ذلك، وأمر الدفتدرار بإحراقهم فيها[20].

بعد الهجوم على المتمة تمكنت قوات الدفتردار وبمساعدة قوات الشايقية، من مطارة الملك نمر وقواته، وتمكنوا من أسر عدد كبير من الجعليين، قام الدفتردار ببناء زريبة كبيرة في بلدة أم عروق جمع فيها كل أسرى الجعليين من أطفال، ونساء، ورجال، وحرقهم بالنار، وقد بلغ عددهم أربعة آلاف، وقال بأن هذا العدد من القتلى والأسرى ليس بكافٍ للتكفير عن قتلهم لسيده إسماعيل باشا، وتمكن أيضا من أسر العديد من الجعليين بغرض إرسالهم لمصر[21].

يقول محمد الأمين سعيد أن الدفتردار عندما وصلت قواته إلى المتمة وجد فيها أبناء الملك نمر والملك المساعد على رأس قوة قوامها عدة آلاف من المقاتلين، فانقض عليهم الدفتردار وقتل منهم ألفين وتمكن من أسر ثلاثة آلاف، وتم إحراق السكان أحياء في المتمة[22].

مدينة بربر:

تعد بربر من المدن التجارية المهمة في السودان، ويمكن القول إن موقعها الجغرافي قد ساعد في أن تحتل هذه المكانة التجارية، فقد كانت القوافل التجارية تأتيها من سواكن ومصر دارفور وسنار، ومن خلال التجارة وحركة القوافل والصادر والوارد اشتهرت بربر وأصبحت قوافلها التجارية تتجه ناحية سواكن وهي محملة بكل الأصناف، وقد تدهور مركز بربر التجاري بعد ظهور مشيخة الشايقية ودخولها في حرب مباشرة مع العبدلاب، وظهر التوتر بين الطرفين مما أثَّر بصورة كبيرة على الحركة التجارية في هذه المدينة[23].

وجدت بربر شهرة كبيرة بسبب دورها التجاري، وقد طغت شهرتها التجارية على مدن كبيرة في السودان مثل الفاشر، وسنار، وغيرها من المدن، وذلك لأهميتها التجارية والاقتصادية[24].

ذكر الرحَّالة بوركهارت أن مدينة بربر تسكنها قبيلة (الميرفاب) والعبابدة وبعض البشاريين والدناقلة، ويقول الميرفاب إن أصلهم ينحدر من الجزيرة العربية، أما بوركهارت فهو يعتقد أنهم من شرق السودان، وعليهم ملك يلقب بـ (الملك). وبعد أن سيطر الفونج على هذه المنطقة أصبحت الزعامة في بربر في أسرة (تمساح) وملك سنار، هو من يعين الملك في بربر من أسرة (تمساح)، وهي الأسرة الحاكمة في بربر، كما كان ملك سنار يقوم بإرسال وفد من قبل السلطنة كل خمس أو أربع سنوات إلى بربر لجمع الأموال من الذهب والجياد والخيول لصالح الملك في سنار[25].

كان ملوك بربر يفرضون الضرائب على الغرباء ويتشددون في ذلك لكي يقوموا بتغطية الجزية التي تدفع لملك سنار، كما يتم فرض بعض الضرائب على أفراد القبيلة ويتم استثناء الأقوياء والأغنياء منهم، كما كان بعض الطامحين في الملك من أبناء الأسرة الحاكمة يقومون بفرض الضرائب على القوافل العابرة لبربر وذلك لكي يتقَّرب بتلك الأموال لملوك سنار، وليصبح بعد ذلك ملكاً على بربر[26].

فك الحصار عن بربر:

بعد إكمال عملية غزو السودان بواسطة إسماعيل باشا أصبحت بربر في يد القوات الغازية، وتم وضع حامية عسكرية على المدينة بغرض حمايتها وتأمينها. بعد الهجوم

على كل من المتمة وشندي تحركت قوات الدفتردار نحو بربر وذلك لفك الحصار المضروب على المدينة من قبل الملك نمر والملك مساعد ومعهما ثمانية آلاف مقاتل. وفي الطريق نكَّل وقتل ودمر الكثير من القرى حتى وصل إلى وجهته. وكان الحصار محكماً على محو بك وقواته داخل المدينة، وحدثت المواجهة بين الجانبين وهُزمت قوات الملك نمر والملك المساعد. وتمكن الدفتردار من قتل ألفاً من الجعليين، وغرق نصفهم في النيل، ونجا الباقي من القوات، وفي نهاية الأمر تمكن الدفتردار من فك الحصار المضروب على بربر[27].

وأرسل بعد ذلك لكل من محو بك، والملك شاويش ملك الشايقة، وود جنقال يطلب منهم القدوم إليه من ودمدني. وعندما اجتمعت هذه القوات لدى محمد بك الدفتردار، عندها علم الملك نمر بهذه القوات لذلك جمع اتباعه وتحرك بهم ناحية جبل النصوب في سهل البطانة[28].

عندما كانت قوات الدفتردار في منطقة الجزيرة وسط السودان، تجمع حوالي سبعة آلاف من المقاتلين الجعليين. وغيرهم من القبائل بغرض مهاجمة بربر للمرة الثانية، ولكن نجحت قوات محو بك من صد القوة المهاجمة وتمكنت من قتل العديد منهم، وبعد ذلك تخوَّف محو بك من تجمع القبائل مرة أخرى ومهاجمته، لذلك طلب من الدفتردار أن يمده بالمزيد من القوات للدفاع عن المدينة، وفي شهر رمضان 1238هـ/ 1823م وصل إليه المدد بقوة على رأسها عثمان أغا كنج، وقد وجهت إليه الأوامر بأن يعمل على تشتيت تجمعات الجعليين في أبوسليم، وفي هذه المنطقة دارت معركة قتل فيها حوالى ثلاث آلاف من السودانيين وغرق الكثيرون في النيل. وبعد هذه الحادثة طلب محمد علي باشا من محو بك أن يستمر في سياسة البطش والتنكيل بالأهالي، كما طلب منه مطاردة الملك المساعد، وتأديب قبائل الشكرية والبشاريين[29].

معركة النصوب:

عمل الدفتردار بعد عودته الثانية من كردفان ناحية مناطق الجعليين على مهاجمة الجعليين والقضاء عليهم. ودارت معركة النصوب بين الدفتردار وقواته المكونة من الشايقية* والمغاربة وقوات الجعليين بقيادة الملك المساعد وانتهت بهزيمة الجعليين، وبعد ذلك تحرك الملك نمر ناحية الحبشة. وتعد معركة النصوب من أهم المعارك بين الدفتردار والجعليين، وقتل فيها الكثير من الجعليين بما فيهم الملك المساعد، وتم

نهب وسلب الكثير من الغنائم في هذه المعركة، كما تم أسر العديد من الجعليين، ومات العديد منهم بسبب العطش، وتمكن بشير ود عقيد من فك أسر عدد من الجعليين[30].

قاتل إلى جانب الملك المساعد الشيخ إدريس ودعدلان، والأرباب دفع الله، وعدد كبير من فرسان الجموعية والجعليين، وبعد مقتل الملك المساعد تم أسر ابنه محمد، وتمكن كل من الأرباب دفع الله وإدريس ودعدلان من الفرار لكن الدفترار عرض عليهم الأمان[32].

الهوامش:

(1) جعفر حامد بشير، مملكة الجعليين الكبرى، (السودان في القرية والمدينة)، دار عزة للطباعة والنشر، الخرطوم، 2004م، ص 126-125.

(2) جون لويس بوركهارت، مصدر سابق، ص 201.

(3) الان مور هيد، النيل الأزرق، (تعريب) إبراهيم عباس أبوريش، دار الثقافة، بيروت، مكتبة النهضة السودانية، الخرطوم، (ب. ت) ص 69.

(4) جون لويس بوركهارت، مصدر سابق، ص 234.

(5) جعفر حامد بشير، مرجع سابق، ص 125.

(6) ضرار صالح ضرار، تاريخ سواكن والبحر الأحمر، الدار السودانية للكتب، الخرطوم، 1981م، ص 78.

(7) محمد إبراهيم أبوسليم، تاريخ مدينة الخرطوم، دار الجيل، بيروت، 1979م، ص 20.

* تعد مدينة شندي من أهم المدن السودانية، وتتميز بموقعها المهم، وكانت مرشحة لتصبح عاصمة السودان بعد غزو محمد علي باشا، ولكن بسبب حادثة حرق إسماعيل بها تم العدول عن ذلك، انظر أحمد أحمد سيد أحمد، مرجع سابق، ص 69-68.

(8) الأمين محمد سعيد، مرجع سابق، ص 64.

* محو بك أورفلي (ت. 1828م)، كردي الأصل عمل ضابطاً في سلاح الفرسان واشترك مع إبراهيم باشا في حربه في جزيرة العرب، (1819-1818م)، تم نقله للسودان في العام 1821م مديراً على منطقة الرباطاب (بربر) وشندي، طارد المك نمر وأسهم في استباب الأمن في المنطقة، خلفه الأميرلاي عثمان بك جركس بعد موته مديراً على سنار في مارس 1825م، اتسمت فترة إدارته القصيرة بالكياسة والاعتدال، ويرجع اسم حي الشجرة بالخرطوم لشجرة محو بك التي كان يستظل بها بالقرب من حوض سفن النيل الأبيض، انظر أحمد الحاج أبوعلي، مصدر سابق، ص 240.

(9) أحمد بن الحاج أبوعلي (كاتب الشونة)، تاريخ ملوك سنار والحكم التركي في السودان، (1288-910ه/ 1872-71-1504م)، نقَّحه وأضاف إليه أحمد الحاج محمد جنقال، والزبير عبدالقادر ودالزين، وإبراهيم عبدالدافع، والأمين محمد الضرير، (تحقيق وتقديم وتعليق) يوسف فضل حسن، دار مدارك للنشر، الخرطوم، 2018م، ص 239-238. عبدالرحمن الرافعي، عصر محمد علي، ط5، دار المعارف، القاهرة، 1989م، ص 167.

(10) الأمين محمد سعيد، مرجع سابق، ص 65..

* الأرباب دفع الله: هو الأرباب دفع الله ود أحمد حسن، (1822م)، من وزراء الهمج، وصل للوزارة في سنار عن طريق العنف، واستمر وزيراً حتى دخلت قوات الغزو لسنار في العام 1821م، تحرك من ودمدني مع حسن ود رجب وفي منطقة أبوشوكة تمكنا من استنفار العديد من القوات ضد قوات الغزو، دخل هو وحسن ود رجب في معركة كبيرة ضد محمد سعيد أفندي، تمكنت قوات محمد سعيد من كسب هذه المعركة وقتل حسن ودرجب، وفَّر الأرباب دفع الله نحو الحبشة ومات هناك، انظر ريتشارد هل، معجم رموز السودان من أقدم العصور حتى العام 1948م،ط2، مطابع السودان للعملة، الخرطوم،2016م ص197.

(11) نعوم شقير، جغرافية وتاريخ السودان، تقديم وتحقيق محمد إبراهيم أبوسليم، دار الجيل، بيروت 1981م ص209..

(12) أ.ف أنتوشين، ذهب سنار قصة أول مصنع روسي لاستخلاص الذهب في عهد محمد علي، (ترجمة) وليد أحمد طلبه، الناشر، وكالة أنباء روسيا، 2014م، ص111. الياس الأيوبي، محمد علي، سيرته وأعماله وآثاره، دار الهلال، القاهرة 1923م، ص 127.

(13) أحمد بن الحاج أبوعلي (كاتب الشونة)، مصدر سابق، ص 242.

(14) المصدر نفسه، ص 108-107.

(15) نسيم مقار، الرحَّالة الأجانب في السودان، 1851-1730، مركز الدراسات السودانية، القاهرة، 1995م ص، 59.

(16) المرجع نفسه، ص 160.

(17) نعوم شقير، مصدر سابق، ص 209..

* بلدة أم عروق: هناك اختلاف حول مكانها، فكاتب الشونة يقول أنها قرية تقع بالقرب من المتمة، ويرى ماكمايكل أنها بلدة تقع في أم درمان وتحديداً مكان بلدية أم درمان الحالية، ويرى مكي شبيكة أنها بلدة كانت عامرة تقع بين شندي والخرطوم، ويرى نعوم شقير أنها تقع جنوب ودمدني، اختلفت الآراء حول مكان أم عروق واتفقت حول الحادثة، الأمر يؤكد فظائع الدفتردار التي طالت الجميع، انظر أحمد ابن الحاج أبو علي كاتب الشونة، مصدر سابق، ص 241.

(18) أحمد كاتب الشونة، مصدر سابق، ص 241.

(19) الأمين محمد سعيد، مرجع سابق، ص 65.

(20) محمد إبراهيم أبوسليم، بحوث في تاريخ السودان، (الأراضي – العلماء – الخلافة - بربر– علس الميرغني)، دار الجيل، بيروت، 1992م، ص 19-18.

(21) المرجع نفسه، ص 81.

(22) جون لويس بوركهارت، مصدر سابق، ص 188.

(23) المصدر نفسه، ص 189-188.

(24) الأمين محمد سعيد، مرجع سابق، ص 65.

(25) أحمد بن الحاج أبوعلي (كاتب الشونة)، مصدر سابق، 108-107.

(26) الأمين محمد سعيد، مرجع سابق، ص 66.

* قبيلة الشايقية: من القبائل التي تعاونت مع محمد علي باشا وخلفاءه في السودان، على الرغم من دخولهم في معركة مشهورة ضد إسماعيل بن محمد علي باشا وهي معركة كورتي، وبعد هزيمتهم في هذه المعركة أصبحوا سنداً حقيقياً للجيش الغازي ومن المقاتلين الأشداء في جيش إسماعيل، وقد اشتركت قوات الشايقية في غزو إقليم الجزيرة وسنار، منحتهم الخدوية الكثير من الأراضي في الشريط النيلي في مناطق الحلفايا، والسبلوقة وغيرها من المناطق الخصبة، واستمروا في ولائهم للحكم والخديوية في السودان حتى قيام الثورة المهدية وتحرير الخرطوم، أسهم الشايقية في حفظ الأمن وجمع الضرائب، انظر حمدنا الله مصطفى حسن، مرجع سابق، ص 334-333.

(27) أحمد كاتب الشونة، مصدر سابق، ص 242.

(28) المصدر نفسه، ص 243.

الفصل الخامس

فظائع الدفتردار
في مناطق السودان المختلفة

الفصل الخامس
فظائع الدفتردار في مناطق السودان المختلفة

فظائع الدفتردار في النيل الأبيض:

اتجهت قوات الدفتردار صوب النيل الأبيض وعملت على التنكيل بالقبائل التي تقطن في تلك المناطق، وارتكبت الكثير من الفظائع، التي لم يشهد السودان مثيلاً لها في تاريخه الحديث، ومن أوائل القبائل التي تعرضت للبطش والتنكيل من قبل الدفتردار وقواته قبائل الحسانية والجموعية والجميعاب، وتمكن من قتل الآلاف منهم[1].

وقد كتب محمد علي باشا للدفتردار في 8 جماد الآخرة 1838هـ/ 20 فبراير 1823م: (... ذكرتم أنكم اتخذتم سبيلكم إلى البحر الأبيض (النيل) وقتلتم فريق من عرب الحسانية التابعين لسنار وأسرتم فريق، واتجهتم إلى شندي الغرب (المتمة)[2].

يتضح من هذا الخطاب أن محمد علي باشا كان ملماً بكل التفاصيل في السودان، وعلى علم بما يقوم به الدفتردار من فظائع تجاه القبائل القاطنة في النيل الأبيض بمختلف مجموعاتها.

فظائع الدفتردار ضد أهالي الحلفايا وتوتي والعيلفون والخرطوم:

تعرضت مناطق الحلفايا، وتوتي، والخرطوم – المقرن، وأم درمان، والعيلفون للتنكيل والبطش من قبل قوات الدفتردار، حيث تمكنت قواته من مهاجمة هذه المناطق بغرض القتل، والسلب، والتعذيب، ولم يتورع الدفتردار ولا قواته في ارتكاب الجرائم الممنهجة ضد الأهالي، ويمكن القول أن الدفتردار وقواته كانوا يتلذذون ويستمتعون بتعذيب أهالي تلك المناطق.

الحلفايا:

تقع الحلفايا على الضفة الشرقية للنيل الرئيس، نقل إليها شيوخ العبدلاب عاصمتهم من قرِّي وأصبحت تعرف بعد ذلك بحلفاية الملوك. اختلفت الآراء حول أصل اسم الحلفايا فمنهم من يقول أن اسمها يرجع إلى نبات (الحلفا)، والرأي الآخر يقول إن

الاسم مأخوذ من (الحل فأية)، إشارة إلى شيخ كان يسكنها، و(فأية) هي ابنة أحد أمراء الفونج قُدر لها أن شفيت على يد هذا الشيخ، فأصبح الناس يقولون لمن به كرب (يحلك الحل فأية)، يرجِّح البروفسير عون الشريف قاسم أن الاسم ما خوذ من اسم نبات الحلفا الذي يكثر في هذه المنطقة وينتشر في ناطق واسع على النيل[3].

وصف الرحَّالة جيمس بروس الحلفايا بأنها مدينة جميلة، تتكون مبانيها من الطين، ويأكل سكانها القطط والتماسيح وفرس النهر[4]. وتطورت الحلفايا بمرور الزمن وأصبحت هناك العديد من المباني بالحجر، كما شهدت المدينة توسعاً ملحوظا على امتداد النيل[5].

كانت لمدينة الحلفايا، عاصمة العبدلاب حلفاء الفونج، أهمية تجارية كبيرة، وذلك لموقعها على الطريق التجاري الذي يربط سواكن ببربر وشندي وسنار، وقد ذكرت تقارير الرحَّالة الأوربيين عن الحلفايا بأنها مدينة تجارية مهمة ذات موقع تجاري جيد، وذلك من خلال وقوعها على الطريق الرئيس بين سنار وقري وشندي ومصر، ويعرف هذا الطريق بدرب (الجمل)[6].

ازدهرت الحلفايا في عهد الشيخ عجيب ود مسمار الذي تولى حكم العبدلاب في العام (1725م)، ووفد الناس للحلفايا بغرض الاستقرار، وتطور فيها النشاط التجاري، ووفدت إليها القوافل التجارية الأمر الذي ساعد في أن تصبح من المدن التجارية المهمة في ظل الدولة السنارية[7].

اشتهرت الحلفايا في العهد السناري بصناعة الدمور الغليظ الذي كان يستخدم كعملة في الأجزاء الجنوبية من نهر عطبرة، كما قامت بالمدينة وحولها مزارع القطن لإنتاج الدمور، وقد أسهم تطور هذه الصناعة في توافد الناس إلى المدينة والاستقرار بها، مما أتاح لها قدر من التحضر والتمدن والتعليم وفن العمارة. بالإضافة للأهمية الاقتصادية لمدينة الحلفايا كانت المدينة واحدةً من المراكز الدينية في العهد السناري، كما اشتهُرت بها الخلاوي والمساجد ودور العلم حتى أصبحت من المراكز الثقافية المهمة في ذلك الوقت، وهي موطن العالم والمؤرخ ود ضيف صاحب كتاب (طبقات ود ضيف الله)، ويمكن القول إن الحلفايا كانت مركزاً زراعياً وتجارياً وصناعياً، ثم مركزاً دينياً وثقافياً وفكرياً بمقياس ذلك الزمان[8].

فظائع الدفتردار في الحلفايا:

كما أشرنا سابقاً فرض الحكم التركي على أهل السودان الكثير من الضرائب التي لم يتمكن الأهالي من سدادها، وقد هرب عدداً كبيراً من أهالي الحلفايا بسبب هذه الضرائب، وكان الجنود الأتراك يلاحقون الفارين منهم ويتعمدون قتلهم بالرصاص، وقد تزامن مع هذه الأحداث انتشار الجدري والجوع بين أهل الحلفايا في العام 1824م، وأكل الناس الكلاب والحمير[9].

كما نكّل الدفتردار وقواته بأهالي الحلفايا والتي أحرقها وهو يرغب في القبض على ودعجيب. ومن الحلفايا توجه ناحية قبة الشيخ خوجلي أبو الجاز ولم يجد بها أحد[10]. والشيخ خوجلي هو واحد من علماء المحس، وقد اشتهر بالتقوى والصلاح، هاجر إلى جزيرة توتي وسكن فيها وبعد أن توفي حمل جسمانه إلى البر الشرقي ودفن هناك[11].

فظائع الدفتردار في توتي:

جزيرة توتي من أهم الجزر على النيل وهي منطقة تاريخية، تمتاز بالتربة الخصبة وجودة هوائها، ويحيط بها النيل الأزرق من جهة الجنوب والشرق، وتسكنها قبيلة المحس[12]. بعد تمكن الدفتردار من التنكيل بأهالي الحلفايا، عبر النيل نحو جزيرة توتي وقتل عدداً كبيراً من سكانها، وقد وصل عدد القتلى من سكان المدينة بحسب المصادر حوالي ستمائة شخص[13].

فظائع الدفتردار العيلفون:

تقع العيلفون إلى الجنوب من الخرطوم على النيل الأزرق ويقال أن أصل الاسم (عيله فونج) وتحلون للعيلفون، تسكنها قبائل المحس، وبها قبة الشيخ إدريس ود الأرباب[14]. وكانت العليفون محطة الدفتردار وقواته بعد توتي، حيث تحرك ناحيتها، وعمل تنكيلاا بأهلها، وقتل عدداً كبيراً من سكانها، والسبب أن أهل المدينة قرروا مواجهة قوات الدفتردار، وكان لهذا التنكيل الأثر الكبير في نفوس السكان في العيلفون وغيرها من المدن السودانية[15].

بعد القضاء على المقاومة في العيلفون، وقتل وسبي أهالي المنطقة توجه الدفتردار بأسرى العيلفون إلى ودمدني[16]. ونتيجة لمقاومة أهالي العيلفون للدفتردار وقواته تعرضوا للقتل والبطش والتنكيل والسبي[17].

ولعل قسوة الدفتردار المفرطة مع أهالى المنطقة جعلت أهل العيلفون يقفون في وجهه، لأنه نكَّل بأهلهم في الحلفايا وتوتي والخرطوم وهذه المناطق امتداد تاريخي لقبيلة المحس في وسط السودان، وأن مواجهته أصبحت حتمية لأنه أيضا لن يتوقف عن ارتكاب المزيد من الفظائع في حق الأهالي العزل.

الدفتردار في المقرن – الخرطوم:

منطقة المقرن يقصد بها منطقة مقرن النيلين الأزرق والأبيض وهي التي شكلت منطقة الخرطوم،ومن أقدم المجموعات السكانية في منطقة الخرطوم قبائل المحس والجعليين (الجموعية والجميعاب)، وهم أقدم المجموعات السكانية في المنطقة الممتدة من جبل أوليا جنوباً وحتى المقرن شمالاً، وقبيلة المحس التي تعد الشريك الرئيس لقبيلة الجعليين في تعمير هذه المنطقة، وقد شهدت المنطقة بعد ذلك حركة هجرة لمجموعات سكانية متعددة بغرض الاستقرار في الخرطوم بعد تطورها وازدهارها[18].

كما لم تسلم الخرطوم من هجمات وجرائم الدفتردار، فقد قام بهدم جامع الشيخ أرباب العقائد، وقام بقتل حفيده أرباب ولد كامل ولد الفكي علي بقذيفة مدفع، واستمر في قمع الثورات التي قامت ضده في مناطق السودان المختلفة[19].

بعد التنكيل بأهالي الخرطوم قام الدفتردار بإنشاء معسكر حربي مصري دائم في الخرطوم، الأمر الذي مهد مستقبلاً لأن تصبح عاصمة البلاد بعد ودمدني[20].

دخلت قوات الدفتردار مناطق الجزيرة، ومن هناك طلب من حسين أغا الجوخدار أن يتحرك بقواته للقضاء على الثورة التي ظهرت في النيل الأبيض، الذي أمعن في قتل وسبي أهالي تلك المناطق، وأسر عدد من الجعليين بلغ عددهم أثنان وسبعون رجلاً، وقام بقطع أيديهم ونتيجة لذلك مات أكثرهم[21]، ولا يوجد تقرير صادق لعدد السودانيين الذين قتلوا في الانتفاضة ضد الدفتردار، أو الخراب الذي لحق باقتصاد السودان، وبعد سنتين من المذبحة، أخبر كاشف المتمة بروتشي Brocchi أن القتلى بلغ خمسين ألفا وهذا تقرير مبالغ فيه[22].

فظائع الدفتردار في أم درمان:

تقع أم درمان على الضفة الغربية للنيل الأبيض وتمتد بمحاذاة نهر النيل[23]، ويرجِّح أن اسم أم درمان موجود منذ عهد دولة الفونج، ولكن ازدهار وشهرة المدنية وتوسعها

ارتبط بالدولة المهدية، وهنالك رأي يقول بأن اسم أم درمان يرجع إلى امرأة من الفونج أو ابنة أحد ملوك الفونج كانت تسكن منطقة أم درمان الحالية، وكان لها ولد يسمى (درمان)، وكان لها منزل مبني من الحجر يحيط به سور ضخم، وكان الناس ينادونها بـ (أم درمان) فأصبحت كلمة أم درمان. أو أن اسم أم درمان يطلق على المنطقة التي تعرف بأم درمان اليوم، ويقال بأن آثار منزلها كانت موجودة إلى وقت قريب بحي بيت المال في أم درمان[24].

كانت مجموعات من الهمج بقيادة ودعجيب قد استقرت في أم درمان، فأرسل إليهم الدفتردار أغا البصيلي ومعه قواته من الشايقية والمغاربة، وعندما علمت قوات ودعجيب بتحرك قوات البصيلي نحوهم تركوا أم درمان وتوجهوا إلى شندي بغرض الانضمام للمك نمر. وعندما وصلتهم الأنباء بتحرك الدفتردار ناحية شندي للمرة الثانية تركوا شندي واتجهوا هذه المرة ناحية الهلالية. وعندماعلم الكتخدار محمد سعيد بأمرهم قام بإرسال عدد من قواته من ودمدني لتعبر بالمراكب للهلالية التي وصلوها فجراً، فقاموا بقتل عدد كبير من الأهالي ونهبوا المدينة، ثم تحركوا ناحية ودمدني مرة أخرى. عندما تحرك حسين الجوخدار للبطش بقبائل النيل الأبيض، وعند وصوله لقرية ود الترابي هاجمت قواته قبيلة الشكرية التي تقيم شرق النيل الأزرق، وسلب منهم العديد من الأغنام والإبل، ثم توجه بعد ذلك بقواته على مجموعات الجعليين التي كانت تقيم على النيل الأبيض[25].

فظائع الدفتردار في منطقة التاكا:

بعد الهجوم على قرى وحواضر الجعليين ومناطق وسط السودان، اتجهت قوات الدفتردار شرق السودان ناحية التاكا وهي المنطقة الواقعة على ضفتي نهر القاش عند نهاية الهضبة الأثيوبية. وكان والغرض من الوصول للتاكا مهاجمة القبائل التي قامت بمعارضة الدفتردار. ولأهمية هذه المنطقة من الناحية التجارية والاستراتيجية، وهي ملتقى للطرق التجارية الواصلة إلى مينائي سواكن ومصوع على البحر الأحمر. ويمتلك الإقليم أراضي خصبة وثروة كبيرة من الجمال التي كانت مصر تحتاجها للحرب في سوريا. وتعد المنطقة نقطة انطلاق ممتازة نحو الحبشة، لذلك سعى الدفتردار للسيطرة عليها، وتمكن من سلب ونهب العديد من خيراتها[26].

كان الغرض من وصول الدفتردار بقواته إلى منطقة التاكا وجبل سبدرات، القضاء

على الملك نمر الذي التف حوله عدد كبير من معارضي حكم الدفتردار، وعمل على توفير الأمن لهم، ودارت معركة كبيرة بين الدفتردار والملك نمر تمكنت قوات نمر خلالها من قتل مائة مقاتل من قوات الدفتردار. وقتل أيضا ودجنقال وأحمد بك وهم من الشايقية الذين وقفوا إلى جانب الدفتردار، وتمكن الملك نمر من الانسحاب ناحية الحبشة بعد هذه الواقعة، لكنه تكبد الكثير من الخسائر وسط قواته، فمنهم من قتل والبعض الآخر وقع في أسر الدفتردار[27].

بعد عمليات القتل والسحل والتعذيب والتنكيل التي قام بها الدفتردار في مناطق السودان المختلفة، وإحساسه بأن الأوضاع بدأت تعود لطبيعتها قرر العودة إلى كردفان، وبعد وصوله للأبيض بلغه خبر عودة الملك نمر إلى شندي، فما كان من الدفتردار إلا العودة من كردفان ومهاجمة الملك نمر[28]. أبقى الدفتردار كردفان تحت إشراف حليم أغا وحسين أغا القبرصي، وحسن أغا الكوملنجية، وتحرك ناحية شندي وعند اقترابه منها انسحب الملك نمر والملك المساعد إلى مناطق أبودليق في سهل البطانة، ومكث الدفتردار في منطقة الجعليين عشرين يوماً. وفي 27 ذي الحجة 1238هـ / 4 سبتمبر 1823م زحفت القوات التي يقودها عثمان أغا نحو منطقة (أبودليق) التي تقع إلى الشرق من الخرطوم تقطنها مجموعات من قبيلة البطاحين، ووجهت الأوامر للقوات التي كانت في الشرق بالتحرك ناحية الملك نمر الذي عمل على استنفار وجمع أهله وعشيرته، ودخل في مواجهة مع القوات التي عملت على مهاجمته، لكنه هزم في هذه المواجهة. وقتل في هذه المعركة أولاده وإخوانه وأعمامه وأولاد أعمامه وعدد كبير من أنصاره وأتباعه، وتمكنت قوات الدفتردار من أسر والدة الملك نمر وزوجاته وبناته وخالاته وبعض أقربائه، وقد بلغ العدد الكلي للأسرى أكثر من أربعة آلاف، وتم إرسالهم جميعاً للقاهرة.[29] بعدها تحرك الملك نمر بمن تبقي معه من قوات نحو الحبشة، وتراجع الملك المساعد ناحية نهر الرهد. عندها قرر الدفتردار مهاجمة الملك المساعد، وتحرك الدفتردار من شندي في 2 محرم 1239هـ/ 8 سبتمبر 1823م، وبعد مسيرة يوماً كاملاً وصلت قوات الدفتردار إلى منطقة أبوحراز بالقرب من ودمدني. وهناك علم أن الملك المساعد عبر نهر الرهد واحد من الروافد المهمة للنيل الازرق والتقى بدفع الله ودعجيب واتجه الجميع نحو الحبشة، وقرر متابعتهم واللحاق بهم، وبعد مسيرة يومين من أبوحراز التقى الدفتردار بالملك المساعد، ودارت معركة

حامية بين الجانبين، كانت حصيلتها أسر سبعة آلاف من أنصار الملك المساعد، بينهم خمسون من أسرته وأقربائه، وغرقت مجموعات كبيرة منهم عندما حاولوا عبور نهر الدندر الرافد الثاني للنيل الازرق بعد نهر الرهد، وغنم الدفتردار الكثير من الجمال والخيول، وعاد الدفتردار بالأسرى البالغ عددهم سبعة آلاف كما أشرنا سابقاً إلى أبو حراز، وأرسل منهم خمسة آلاف إلى سنار بغرض إرسالهم إلى القاهرة[30].

كان الدفتردار يأمل في القبض على الملك نمر الذي عاد إلى منطقة كسلا، ولتحقيق أمنيته زحف الدفتردار من أبوحراز شرقاً ناحية كسلا حاضرة منطقة التاكا ، وتمكن من عبور نهر عطبرة وهو نهر موسمي ويعد من أهم روافد نهر النيل شمال الخرطوم، وقام بالتنكيل بمجوعات من قبيلة الشكرية في تلك المناطق، ومكث في منطقة قبيلة الحمران وهي من قبائل المنطقة لمدة ثمان أيام، وهو في هذه المنطقة وصلته الأخبار أن الملك نمر ومعه أعداد من قبيلة الشكرية يعسكرون من كسلا، وتمكنوا من هزيمة القوات الحكومية هناك. ولتخفيف الضغط على تلك القوات اشتبك الدفتردار مع قوات الملك نمر وقتل في هذه المعركة حوالي ثلاثمائة من أتباع الملك نمر. ومن جانب وقوات الدفتردار قتل أثنين من القادة العسكريين ونحو خمس وثلاثون جندياً. وبقي الدفتردار في المنطقة لمدة عشرة أيام، وفي هذه الفترة تمكن الدفتردار وقواته من قتل وأسر الكثيرين. ثم تحرك نحو قوز رجب وتحرك بمحاذاة نهر عطبرة ليرتكب الفظائع في حق قبيلة البشاريين التي كانت تقيم في تلك المناطق، وواصل مسيره حتى وصل الدامر[31].

من خلال المواجهات المباشرة بين قوات الدفتردار والملك نمر، لم يتمكن الدفتردار من أن ينال من الملك نمر الذي استقر في المنطقة الواقعة بين نهر ستيت أحد أفرع نهر عطبرة والقلابات على الحدود السودانية الحبشة، واستمر في المقاومة وشن الهجمات في شرق السودان حتى وفاته.

هناك ملاحظة مهمة وهي أن الشيخ بشير ودعقيد المسلمابي الجعلي تعاون مع الدفتردار وأخبره بزعماء الثورة والثوار من الجعليين، الأمر الذي جعله صاحب مكانة كبيرة عند الدفتردار وعينه ملكاً على الجعليين[32].

ويرجح ان الخلافات الشخصية بين الشيخ بشير ودعقيد والملك نمر هي التي جلعته

يتعاون مع الجيش الغازي ويتواصل مع محمد علي باشا شخصياً ، وتشير المصادر إلى أن الشيخ بشير قد قابل محمد علي باشا في مصر قبل الغزو، حيث حضر للقاهرة في 1232هـ/1817-1816م، مستنجداً بالباشا لأن الملك نمر قد وشي به لدى ملك سنار، واستقبل ود عقيد خير استقبال في القاهرة، وقد أنشد أحد أتباعه عند وصول ودعقيد لمصر:

ولاك مقهور

ولاك منهور

وساكت بطر جيت شكاي

وكم تلباً كبير منك يبيض ويكاكي

سلام عليك يامصر العزيزة مكنا جاكي[33].

مدينة سنار:

تعد مدينة سنار من الأسواق المهمة في الدولة السنارية، أسسها الفونج في العام (910هـ/1504م)، وقد ظلت عاصمة للسلطنة منذ تأسيسها في العام (1504م) وحتى سقوطها في العام (1821م)، اشتهرت سنار بتجارة الرقيق والذهب والعاج وسن الفيل، كما ظلت ترسل قوافلها التجارية بانتظام إلى كل من الحبشة ومصر وسواكن[34].

شجع موقع سنار الجغرافي عمارة دنقس لكي يتخذها عاصمة للمملكة وهي قريبة من منبع قوة عمارة في الجنوب، حيث جند الفونج من أبناء (جانجر). وسنار تتوسط المنطقة الحيوية الزراعية في حوض النيل الأزرق. كما أن هناك مزايا استراتيجية لسنار بوصفها عاصمةً تتلخص في قيام الموقع على الضفة الغربية لنيل الأزرق مما يسهل معه الدفاع عن المدينة ضد أي هجوم خارجي مصدره الجنوب. فإذا كان الاعتداء من الشرق فإن أنهار الدندر والرهد والنيل الأزرق يشكِّلون مانعاً طبيعياً يعيق الوصول إلى العاصمة من تلك الجهات[35].

كما تم وصف سنار في العام (1701م) بواسطة أحد الرحَّالة وقال أنها تعد من المدن المزدهرة في أفريقيا، كما أن القوافل التجارية تصل إليها من مصر ودنقلا وبلاد

النوبة وسواكن والهند عبر الأحمر والحبشة. كما ضمت مجموعة من الأجانب من مصر، والحبشة، وليبيا وأرمينيا، واليونان، ويوغسلافيا، و وإيطاليا، وفرنسا، والمانيا، والبرتغال، وقد أطلق السكان على هؤلاء الوافدين اسم (الخواجات)[36].

كان للسلطان وكلاء في كل من مصر والحجاز وأثيوبيا، مهمتهم استقطاب التجار الأجانب، وأصحاب الحرف ورجال الدين الذين يمكن أن تستفيد منهم الدولة السنارية. وبعد وصول هؤلاء الوافدين إلى سنار يخصص لهم مرافقين يشرفون على شؤونهم، والتجار منهم ينالون إعفاء من الضرائب[37].

وبالإضافة لما سبق من وصف سنار بالثراء المادي والغنى فقد وفد إليها التجار من مصر والحجاز والهند عبر نهر النيل والبحر الأحمر عبر سواكن، ووصل إليها التمر من دنقلا والذهب والحديد من كردفان، ومن فازوغلي الذهب والعسل والجلود والسياط وريش النعام والسمسم، ومن رأس الفيل الذهب والخيول والبن والزباد والعسل والعاج وغيرها من حلى النساء[38].

الصناعات في الدولة السنارية وأثرها في التجارة:

قامت في الدولة السنارية العديد من الصناعات التي أسهمت في حركة التجارة الداخلية والخارجية، ومن هذه الصناعات صناعة الغزل والنسيج، وتعد سنار المدينة الأولى في هذه الصناعة، فالدمور السناري انتشر استعماله في معظم مناطق السودان، وكان يصدر منه إلى خارج السودان عبر التجارة الخارجية إلى الحبشة ومصر، وبالإضافة إلى صناعة النسيج ظهرت صناعة الحصر والبروش والسلال، كما ظهرت الصناعات التي تعتمد على الأخشاب في كل من بربر وسنار[39].

الصناعات الجلدية:

استخدم الإنسان السوداني منذ القدم الجلود حيث وجدت بعض الآثار التي تدل على استخدامه ككفن في حضارة المجموعة (ج) (2000-3000 ق.م)، وقد استمر استخدامه في دفن الموتى حتى الحضارة المروية، واستخدمها كذلك في صناعة الصنادل في عهد حضارة كرمة والممالك المسيحية، واستمر هذا الإرث الصناعي إلى يومنا هذا[40].

شكَّلت الصناعات الجلدية مصدراً مهماً من مصادر الدخل في الدولة السنارية، كما أن مدينة سنار كانت تعد أهم المدن السنارية في صناعة الجلود، وكانت المصنوعات

الجلدية السنارية تصدر للخارج، ويسوق بعضها محلياً. ومن المصنوعات الجلدية التي برع في صناعتها أهل سنار (رحال الإبل، والصنادل، والزمزميات، و الدرق، و الكرابيج) وغيرها من المصنوعات الجلدية[41].

فظائع الدفتردار في سنار:

عند وصول الدفتردار إلى سنار كانت الخزانة خاوية، ولم يصرف الجنود مرتباتهم لعدة شهور. ونتيجة لتضرر القرى وخرابها قام حنا الطويل بفرض القليل من الضرائب، الأمر الذي أغضب محمد علي باشا. وطلب من الدفتردار أن لا يستمع لحجج ومبررات حنا الواهية، وعليه أن يعمل على جمع أكبر قدر من المال من خلال فرض المزيد من الضرائب على أهالي سنار، وذلك بغرض صرف مرتبات الجند منها، وإن أمر الضرائب وفرضها والعمل على تحصيلها يجب أن يقوم به الدفتردار على أكمل وجه، لأنه إذا أخفق في ذلك وجاء خلفه ونجح فيه يكون ذلك وصمة عار في جبين الدفتردار الذي لم يتمكن من تأدية مهمة فرض وجمع الضرائب من أهالي سنار بنجاح[42].

أدى خراب المدن والقرى الذي قام به الدفتردار انتقاماً لمقتل إسماعيل باشا لضعف وقلة الضرائب التي تجمع من الأهالي، لأنهم لا يملكون المال ليقوموا بتسديد ماعليهم من ضرائب للحكومة، ورغم ذلك مارس الدفتردار التنكيل بالأهالي الذين يمتنعون عن دفع الضرائب[43].

لم يسلم رجال الدين من بطش الدفتردار فقد قام بضرب الفقيه إبراهيم* ودعيسى ومعه شخص آخر يدعى عجيب ود دقيس، وبعد أن قام بضربهم عمل على أخذهم معه إلى أبوحراز، وأمر بحبسهم، ثم قام بإطلاق سراحهم، وقام أيضا بقتل الشيخ صالح ودبانقا[44].

من خلال ما سبق نلحظ أن الدفتردار وقواته من مغاربة وألبان وأرنؤوط وغيرهم من مكونات حملة الغزو أسهمت في التنكيل بالسودانيين من مختلف القبائل والمناطق، ويُرجح أن حملة الغزو وفترة الحكم الذي تلتها في السودان عززت ثقافة الرق وتجارته وبيع الرقيق، وقد روجوا لهذه التجارة لعدد من الأسباب، ومنها:

- تسديد مرتبات الجنود التي لم توفق الحكومة بالايفاء بها في وقتها المحدد.
- استخدامهم في المنازل وتسخيرهم لخدمتهم.
- أخذ الرقيق إلى مصر للبيع والعمل في المنازل والمزارع.

تقييم الثورة:

كانت أهم نتائج هذه الثورة هو الدمار الشامل. ففي الجزيرة سلة غذاء سنار وقتئذ، حدث نزوح سكاني كثيف، واختل التوازن القبلي. فانحدرت قبيلة رفاعة التي كانت من أكبر القبائل على الضفة الشرقية للنيل الأزرق إلى الحضيض، بينما استولى الشكرية الذين تصالحوا مع الحكومة على أراضيها. وتراجع الفونج السادة السابقين إلى الجبال الجنوبية. وأصبحت منطقة عبود في االجزيرة التي نهبت في العام 1822م مجموعة من الأكواخ. وازدهرت مدينة ودمدني وأصبحت عاصمة لمديرية سنار. أما حلفاية الملوك فقد تم طرد سكانها العبدلاب من أرضهم ومنحت للشايقية.

إن الثورة السودانية كانت ثورة اليأس ودون قيادة حقيقية وبلا هدف محدد. ولم يهب زعيم من الفونج أو الهمج، القبيلتان ذات التقاليد الراسخة والطويلة في الحكم لتوحيد الولاءات القديمة للسلطنة لمواجهة الخطر الأمني والذود عن البلاد، وأصبح على السودان أن ينتظر ستين عاماً لظهور قائد وطني يحرر البلاد من السيطرة الأجنبية.

الهوامــش:

(1) الأمين محمد سعيد، مرجع سابق، ص 65.

(2) عون الشريف قاسم، حلفاية الملوك، التاريخ والبشر، دار جامعة أم درمان الإسلامية للطباعة والنشر، الخرطوم، 1988م، ص23.

(3) الان مور هيد، مرجع سابق ص 68.

(4) مكي شبيكة، السودان عبر القرون، مرجع سابق، ص 75.

(5) جعفر حامد البشير، مرجع سابق، ص 122-121.

(6) صلاح محيي الدين، وقفات في تاريخ السودان، دار ومكتبة الهلال، القاهرة، ط3، 1995م، ص78.

(7) تاج السر عثمان الحاج، لمحات من تاريخ سلطنة الفونج الاجتماعي (1504- 1823م)، مركز محمد عمر بشير، للدارسات السودانية، أم درمان، 2005م، ص 102.

(8) عون الشريف قاسم، حلفاية الملوك التاريخ والبشر، دار جامعة أم درمان الإسلامية، 1988م، ص93.

(9) أحمد كتاب الشونة، مصدر سابق، ص 232.

(01) نعوم شقير، جغرافية وتاريخ السودان، مصدر سابق، ص 111-110.

(11) المصدر نفسه، ص 110.

(12) محمد إبراهيم أبوسليم، تاريخ مدينة الخرطوم، ص 16.

(31) نعوم شقير، مصدر سابق، ص 112-111.

(14) محمد إبراهيم أبوسليم، تاريخ الخرطوم، مرجع سابق، 1979، ص16.

(51) أحمد كاتب الشونة، مصدر سابق، ص242.

(16) نعوم شعير، جغرافية وتاريخ السودان، مصدر سابق، ص 209.

(17) أحمد أحمد سيد أحمد، مرجع سابق ص 74.

(18) محمد إبراهيم أبوسليم، مرجع سابق، ص 22.

(19) أ.ف أنتوشن، ذهب السودان، قصة أول مصنع روسي لاستخلاص الذهب في عهد محمد علي، ط2، (ترجمة) وليد أحمد طلبه، أنداء روسيا، دار الطباعة المتميزة، القاهرة، ص18.

(02) الأمين محمد سعيد، مرجع سابق، 65.

(12) محمد إبراهيم أبوسليم، تاريخ مدينة الخرطوم، مطبعة السودان للعملة، الخرطوم، 2008م، ص 23-20.

(22) محمد سعيد القدال، تاريخ السودان الحديث (1956-1821م)، مرجع سابق، ص 460.

(32) أحمد كاتب الشونة، مصدر سابق، ص 242..

(42) محمد سعيد القدال، تاريخ السودان الحديث، مرجع سابق، ص 57-56.

(25) أحمد كاتب الشونة، مصدر سابق، ص 243.

(62) الأمين محمد سعيد، مرجع سابق، ص 66.

(27) الأمين محمد سعيد، مرجع سابق، ص 67.

(82) نعوم شقير، مصدر سابق، 210.

(29) محمد فؤاد شكري، مصر والسودان، تاريخ وحدة وادي النيل السياسية في القرن التاسع عشر، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة،2011م، ص8.

(03) الأمين محمد سعيد، مرجع سابق، ص 40.

(31) المرجع نفسه، ص 67.

(32) أبو البشر عبدالرحمن يوسف، العلاقات التجارية بين دارفور والعالم الخارجي (-1640 1874م)، شركة مطابع السودان للعملة، الخرطوم، 2016م، ص 151.

(33) الشاطر بصيلي عبد الجليل، من معالم تاريخ سودان وادي النيل من القرن العاشر إلى القرن التاسع عشر الميلادي، مكتبة الشريف الأكاديمية، الخرطوم، 2009م، ص 33.

(34) عمر عدلان الملك حسن، سلطنة الفونج، شركة التربية للطباعة والنشر، سنجة، 2014م، 40.

(35) المرجع نفسه، ص 41.

(36) نعوم شقير، جغرافية وتاريخ السودان، دار عزة للطباعة والنشر والتوزيع، الخرطوم، 2007م، ص 415.

(37) محمد الأمين سعيد، سياسة محمد علي باشا في السودان، (1264-1235هـ)- (-1820 1848م)، (ب. د)،2016م، ص 18-16.

(38) جعفر آدم عيسى، من مورثات الماضي في سودان اليوم، مجلة محاور، مجلة نصف سنوية تعنى بالدراسات السودانية، تصدر عن مركز محمد عمر بشير للدراسات السودانية العدد الثاني، فبراير 1999م،ص 22.

(39) محمد الأمين سعيد، مرجع سابق، ص 19.

(40) الأمين محمد سعيد، مرجع سابق، ص 103.

(14) المرجع نفسه، ص 104-103.

* إبراهيم ودعيسى: هو إبراهيم بن عيسى بن محمد الأنصاري، ولد بعرفة إبان حج والديه

في العام 1192ه، نشأ وتربى في قرية كترانج ودرس فيها على يد والده، وهو مؤسس مسيد ودعيسى بقرية المسيد على الضفة الغربية للنيل الأزرق في عام 1265ه، أعاد محمد علي باشا بناء هذا المسجد بالطوب الأحمر ليصبح منارة علمية ومعهداً علمياً يجد الدعم المالي من قبل الحكم التركي في السودان، انظر أحمد كاتب الشونة، مصدر سابق، ص 244.

(24) أحمد كاتب الشونة، مصدر سابق، ص 244.

(34) الأمين محمد سعيد، مرجع سابق، ص 68.

(44) أحمد كاتب الشونة، مصدر سابق، ص 244.

الفصل السادس
نهايــة الدفتردار في الســودان

الفصل السادس
نهايـة الدفتردار فـي السـودان

لم تكن أعمال الدفتردار الوحشية غائبة عن أذهان القناصل الأوربيين في القاهرة، وبدأوا في الضغط على محمد علي باشا لعزله وسبحه من السودان، وذلك بسبب ماقام به طوال الفترة الممتدة من العام 1824-1821م. وعندما بدأ محمد علي باشا يفكر في إيجاد خلف له في السودان حدثت الاضطرابات في الحجاز والمورة. وكان محمد علي قد بدأ البحث عن خلف للدفتردار في السودان بترشيح عثمان بك جركس* لسنار، وخورشيد* باشا من أميرالايات الجهادية لإدارة كردفان. لهذا تأخر إرسالهم إلى السودان حتى فبراير 1823م، وفي 20 شوال 1238ه/ 3 يونيو 1823م تم إخطار محمد بك الدفتردار بأنه تم ترشيح ولاة جدد لسنار وكرفان. بعد ذلك غادر الدفتردار إلى مصر ووصل خلفه عثمان بك البرنجي في أواخر العام 1239هـ/ 1824م[1].



لوحة (2) لمنزل الألفي الذي انتقل لمحمد بك الدفتردار في العام 1833م وقد قام بهدمه وبناه على الطراز العثماني.

المتتبع لمسيرة الدفتردار في السودان يجد أن فترته قد اتسمت بكل صنوف وأنواع العنف والبطش والتنكيل، كما أن قواته مارست العديد من التعديات على الأهالي العزل في مناطق السودان المختلفة، وقد أدى عدم صرف الجنود لرواتبهم لمدة ثمانية أشهر إلى ازدياد حالات العنف والقتل والسلب ضد الأهالي. أدت الجرائم التي ارتكبها

الدفتردار في حق أهل السودان إلى إثارة الرأي العام الأوربي، الذي طالب وبشدة إنهاء حكم محمد بك الدفتردار في السودان، وقد امتثل محمد علي باشا لهذه الضغوط وقرر سحب الدفتردار من السودان.

غادر محمد بك الدفتردار السودان متوجهاً إلى مصر ليمارس عمله الأول في خدمة محمد علي باشا(2).

هناك سؤال محوري يطرح نفسه بعدما تتبعنا فظائع الدفتردار في السودان، هل كان من ضمن أهدافه إرهاب وتخويف السودانيين؟ أم القضاء على زعاماتهم القبلية واستقطاب زعامات قبلية جديدة تكون أذناباً للمصريين؟.

بعد عودته من السودان أصبح الدفتردار وزيراً للحربية في العام 1825م. وكان الباشا يستتأنس بمشورته حول السودان وأوضاعه الداخلية، وقد كان الدفتردار على درجة عالية من التعليم، تمكن من إعداد خريطة لأجزاء السودان التي احتلتها قوات محمد علي باشا. وقد توفي في جزيرة محمد بالقرب من القاهرة في ظروف غامضة في العام 1833م(3).

يذكر أن الخريطة التي أعهدها الدفتردار عن السودان امتازت بالدقة، وُرشح لعضوية الجمعية الجغرافية الفرنسية بباريس.

نتائج فظائع الدفتردار في السودان:

ترتبت على فظائع الدفتردار في السودان نتائج خطيرة للغاية، فمنذ أن دخل السودان حلَّ الخراب والدمار في كل مكان، وتوقف النشاط البشري أو كاد، وعانى أهل السودان أشد المعاناة من جراء سياسة الدفتردار، وأصبحت الكراهية والبغضاء لحكم الباشا والدفتردار من السمات الغالبة على العديد من القبائل التي تعرضت لمختلف صنوف التنكيل والبطش، ويجب القول أن محمد علي باشا كان على علم بتفاصيل تلك الفظائع ومشجعاً لها وموجه للكثير منها، وكان يطلب المزيد من التنكيل والبطش ضد القبائل السودانية(4).

الهوامــش:

(1) الأمين محمد سعيد، مرجع سابق، ص 81.

(2) خوجلي صديق، مرجع سابق، ص 9.

(3) رتشارد هل، مرجع سابق ص 158.

الخاتـمـــة

من خلال رصدنا وتتبعنا لفظائع الدفتردار في السودان يمكننا القول أن فترته في السودان كانت تهدف للسيطرة على هذا البلد المترامي الأطراف والغني بموارده وثرواته، وإخضاع أهله بمختلف الوسائل مثل: القتل، والتشريد، والتهجير، والتنكيل، والاسترقاق بغرض التجنيد في جيش محمد علي باشا، أو العمل في الزراعة في مصر، ومما يدلل على هذا القول أن طول فترة الدفتردار في السودان، التي امتدت لأربع سنوات من عام 1824-1821م، مارس فيها الدفتردار كل هذه الأساليب تجاه السودانيين، فقد تمكن من قتل أعدد كبيرة من السودانيين في مختلف المناطق وهي: كردفان، والنيل الأبيض، وشندي، والمتمة، والدامر، والخرطوم، وتوتي، والعليفون، والجزيرة، والبطانة، وسنار، والتاكا، والهلالية، وجبال النوبة، كما نجح في تهجير وتشريد مجموعات كبيرة من الجعليين وأهالي كردفان من مناطقهم الرئيسه، كما نكَّل بأهالي العليفون وتوتي وغيرها من المناطق التي هجمت عليها قواته طوال فترة حكمه في السودان.

اتصفت فترة الدفتردار في السودان بجميع الفظائع من بطش وتنكيل وتهجير لجميع أبناء الشعب السوداني في مختلف مناطقه، وقد عانت مناطق الجعليين ووسط السودان أشد المعاناة من الدفتردار وبطشه، وقد تفنن الدفتردار في تعذيب السودانيين بصورة واضحة، كما هاجرت العديد من القبائل من مناطقها في كردفان ووسط وشرق السودان. ويمكن القول أن شخصية الدفتردار الانتقامية أثَّرت بصورة كبيرة في العلاقة المستقبلية بين أهل السودان وحكامه من قبل محمد علي باشا وخلفاءه، الأمر الذي أوجد حالة من الغبن عند أهل السودان طوال الفترة من 1821-1885م. وربما يكون هذا الغبن قد أسهم في بلورة الثورة المهدية مستقبلاً وأحد أسباب نجاحها.

ولعل أهم الأسباب التي أدت إلى ارتكاب الدفتردار لهذه الفظائع تمثل في شخصية الدفتردار غير المتنزنة والمتقلبة الأمر الذي أكدته العديد من الأحداث والمواقف في السودان. ومحاولته المستمرة للتقرب من محمد علي باشا، والعمل على كسب رضائه، وأطماعه الشخصية التي تتثمل في أن يكون الحاكم الأول والأوحد للسودان

بعد إكمال السيطرة عليه، وقد أسهم مقتل إسماعيل باشا وحرقه في شندي في ازدياد وتيرة الفظائع وتنوعها ضد أهل السودان، واستفاد الدفتردار من هذا الحدث في تنفيذ فظائعه، والعمل على القضاء على كل صور المقاومة القبلية والقيادات لقهر الشعب السوداني وإخضاعه للحكم الجديد.

ويبقى الباب مفتوحاً للمزيد من الدراسات حول أسباب هذه الفظائع، وكيفية استفادة الباشا من ثروات السودان دون أي مقاومة أو معارضة منظمة. ومما يدل على هذا الأمر زيارة الباشا نفسه للسودان بغرض الوقوف على هذه الموارد وتهئية البلاد لأن تصبح ملجئ له في حالة أي خطر قادم.

المصادر والمراجع



المصادر والمراجع

(1) أحمد أحمد سيد أحمد، تاريخ مدينة الخرطوم (1885-1820م)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2000م.

(2) أحمد بن الحاج أبوعلي (كاتب الشونة)، تاريخ ملوك سنار والحكم التركي في السودان، (1288-910ه/ 1872-71-1504م)، نقّحه وأضاف إليه أحمد الحاج محمد جنقال، والزبير عبدالقادر ودالزين، وإبراهيم عبدالدافع، والأمين محمد الضرير، (تحقيق وتقديم وتعليق) يوسف فضل حسن، دار مدارك للنشر، الخرطوم، 2018م.

(3) آلان مور هيد، النيل الأزرق، (تعريب) إبراهيم عباس أبوريش، دار الثقافة، بيروت، مكتبة النهضة السودانية، الخرطوم، (ب. ت).

(4) الشاطر بصيلي عبد الجليل، من معالم تاريخ سودان وادي النيل من القرن العاشر إلى القرن التاسع عشر الميلادي، مكتبة الشريف الأكاديمية، الخرطوم، 2009م.

(5) الأمين محمد سعيد، سياسة محمد علي في السودان (1264-1235ه/1848-1820م)، (ب.د)، 2016م.

(6) إقناتيوس بالما، رحلات في كردفان (1839-1837م)، (ترجمة) أرباب موسى بخيت، دار المصورات للنشر، الخرطوم،2019م.

(7) أ.ف أنتوشين، ذهب سنار قصة أول مصنع روسي لاستخلاص الذهب في عهد محمد علي، (ترجمة) وليد أحمد طلبه، الناشر، وكالة أنباء روسيا، 2014م.

(8) أبوالبشر عبدالرحمن يوسف، العلاقات التجارية بين دارفور والعالم الخارجي، (-1640 1874م)، شركة مطابع السودان للعملة، الخرطوم، 2016م.

(9) الياس الأيوبي، محمد علي، سيرته وأعماله وآثاره، دار الهلال، القاهرة 1923م.

(10) بدر الدين حامد الشامي، السودان بعيون غربية، ج5، مكتبة جرير الورد، القاهرة، 2015م.

(11) تاج السر عثمان الحاج، لمحات من تاريخ سلطنة الفونج الاجتماعي (1504- 1823م)، مركز محمدعمر بشير، للدراسات السودانية، أمدرمان، 2005م.

(12) جعفر حامد بشير، مملكة الجعليين الكبرى، (السودان في القرية والمدينة)، دار عزة للطباعة والنشر، الخرطوم، 2004م.

(13) جون لويس بوركهارت، رحلات بوركهارات في بلاد النوبة والسودان، ترجمة فؤاد اندوراس، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة،2007م.
(14) جعفر آدم عيسى، من مورثات الماضي في سودان اليوم، مجلة محاور، مجلة نصف سنوية تعنى بالدراسات السودانية، تصدر عن مركز محمد عمر بشير للدراسات السودانية العدد الثاني، فبراير 1999م.
(15) حمدنا الله مصطفى حسن، التطور الاقتصادي والاجتماعي في السودان، (-1841 18881م)، دار المعارف، القاهرة، 1985م.
(16) حسن كمال، تاريخ السودان القديم، مطبعة المقطم والمقتطف، القاهرة، 1924م.
(17) حمد الأمين سعيد، سياسة محمد علي في السودان (1264-1235هـ / 1848-1820م)، (ب.د) 2016م.
(18) سليمان الغنام، قراءة في سياسة محمد علي باشا التوسعية في الجزيرة العربية والسودان واليونان وسوريا (1840-1811م)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2004م.
(19) رتشارد هل، معجم رموز السودان من أقدم العصور حتى العام 1948م،ط2، مطابع السودان للعملة، الخرطوم،2016م.
(20) شوقي الجمل، تاريخ سودان وادي النيل حضاراته وعلاقته بمصر من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 2008م.
(21) صلاح محيي الدين، وقفات في تاريخ السودان، دار ومكتبة الهلال، القاهرة، ط3، 1995م.
(22) ضرار صالح ضرار، تاريخ سواكن والبحر الأحمر، الدار السودانية للكتب، الخرطوم، 1981م.
(23) رأفت غنيمي الشيخ، مصر والسودان في العلاقات الدولية، مكتبة الدراسات التاريخية والعلاقات الدولية، عالم الكتب، القاهرة، (ب.ت)
(42) عبدالرحمن الرافعي، عصر محمد علي، ط5، دار المعارف، القاهرة، 1989م.
(25) عوض عبدالهادي العطا، تاريخ كردفان السياسي، المجلس القومي لرعاية الآداب والفنون،1973م.
(26) عبدالله حسين، السودان من التاريخ القديم إلى رحلة البعثة المصرية، ج1، موسسة هنداوي، القاهرة، 2012م.
(27) عبدالرحمن الرافعي، عصر محمد علي، ط5، دار المعارف، القاهرة، 1989م.
(28) عمرعدلان الملك حسن، سلطنة الفونج، شركة التربية للطباعة والنشر، سنجة، 2014م.

(29) عون الشريف قاسم، حلفاية الملوك، التاريخ والبشر، دار جامعة أم درمان الإسلامية للطباعة والنشر، الخرطوم، 1988م.
(30) محمد محمود السروجي، دراسات في تاريخ مصر والسودان المعاصر، (ب.د)، القاهرة، 1998م.
(31) محمد إبراهيم أبوسليم، تاريخ مدينة الخرطوم، دار الجيل، بيروت، 1979م.
(23) بحوث في تاريخ السودان، (الأراضي – العلماء – الخلافة - بربر– علي الميرغني)، دار الجيل، بيروت، 1992م.
(33) الفور والأرض وثائق تمليك، إصدارات مركز أبوسليم للدراسات، الخرطوم، 2006م.
(34) محمد فؤاد شكري، مصر والسودان، تاريخ وحدة وادي النيل السياسية في القرن التاسع عشر، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة،2011م.
(35) مكي شبيكة، السودان عبر القرون، مرجع سابق، ص 75.
(36) محمد الأمين سعيد، سياسة محمد علي باشا في السودان (1264-1235هـ)/ (-1820 1848م)، (ب، د)،2016م.
(37) نعوم شقير، جغرافية وتاريخ السودان، تقديم وتحقيق محمد إبراهيم أبوسليم، دار الجيل، بيروت 1981م.
(38) نسيم مقار، الرحَّالة الأجانب في السودان، 1851-1730، مركز الدراسات السودانية، القاهرة، 1995م.
(39) نعوم شقير، جغرافية وتاريخ السودان، تقديم وتحقيق محمد إبراهيم أبوسليم، دار الجيل، بيروت 1981م.

الملاحق

ملحــق رقــم (1)

جدول يوضح المناطق التي تعرضت لفظائع الدفتردار بأنواعها المختلفة

الرقم	اسم المنطقة	القبائل التي تعرضت للفظائع	أنواع الفظائع التي تعرضت لها
1	بارا	مجموعة من القبائل	القتل – الأسر – النهب - التهجير
2	الأبيض	مجموعة من القبائل	القتل – التشريد – النهب – التهجير
3	جبال النوبة	مجموعات النوبة	الأسر - التشريد
4	النيل الأبيض	الجعليين = الجموعية	الأسر – القتل
5	المتمة	الجعليين	قتل – حرق - سبي
6	أم عروق	الجعليين	الحرق بالنار
7	شندي	الجعليين	قتل – حرق – نهب – سبي
8	الدامر	الجعليين	حرق- قتل
9	الحلفايا	الهمج	حرق المدينة بالنار
10	توتي	المحس	قتل – نهب
11	الخرطوم	المحس	قتل – نهب
12	العيلفون	المحس	القتل – الحرق- سبي النساء والرجال
13	النيل الأبيض	جعليين –جموعية- حسانية	تقطيع الأيادي – الأسر – القتل
14	الهلالية	الهمج	قتل - النهب
15	عبود	الجعليين	قتل – تخريب – نهب
16	التاكا	سبدرات	التشريد
17	قوز رجب	االجعليين	التشريد – التنكيل
18	سنار	الفونج	القتل - التشريد



لوحة (3) محمد علي باشا



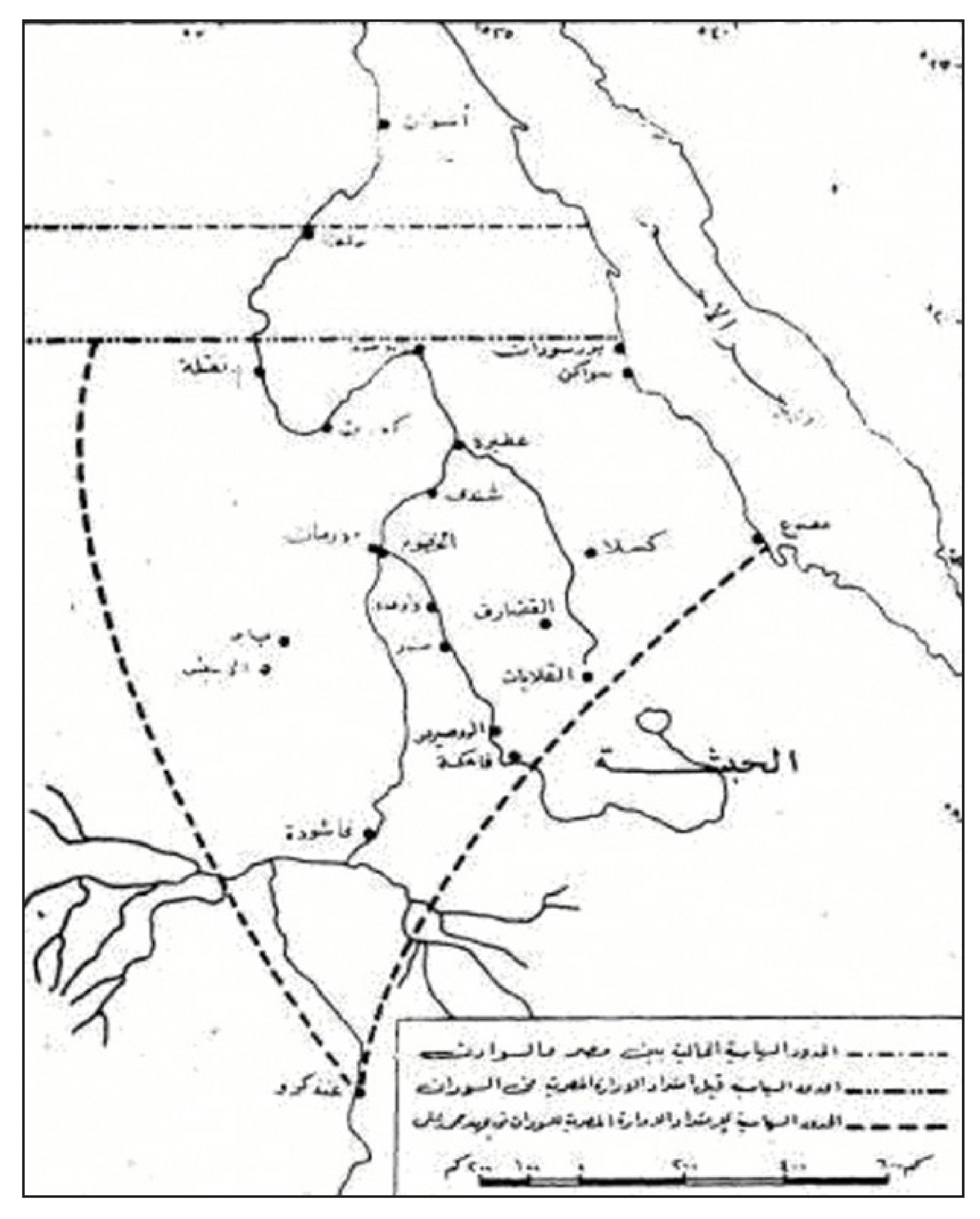
لوحة (4) جانب من قوات محمد علي باشا



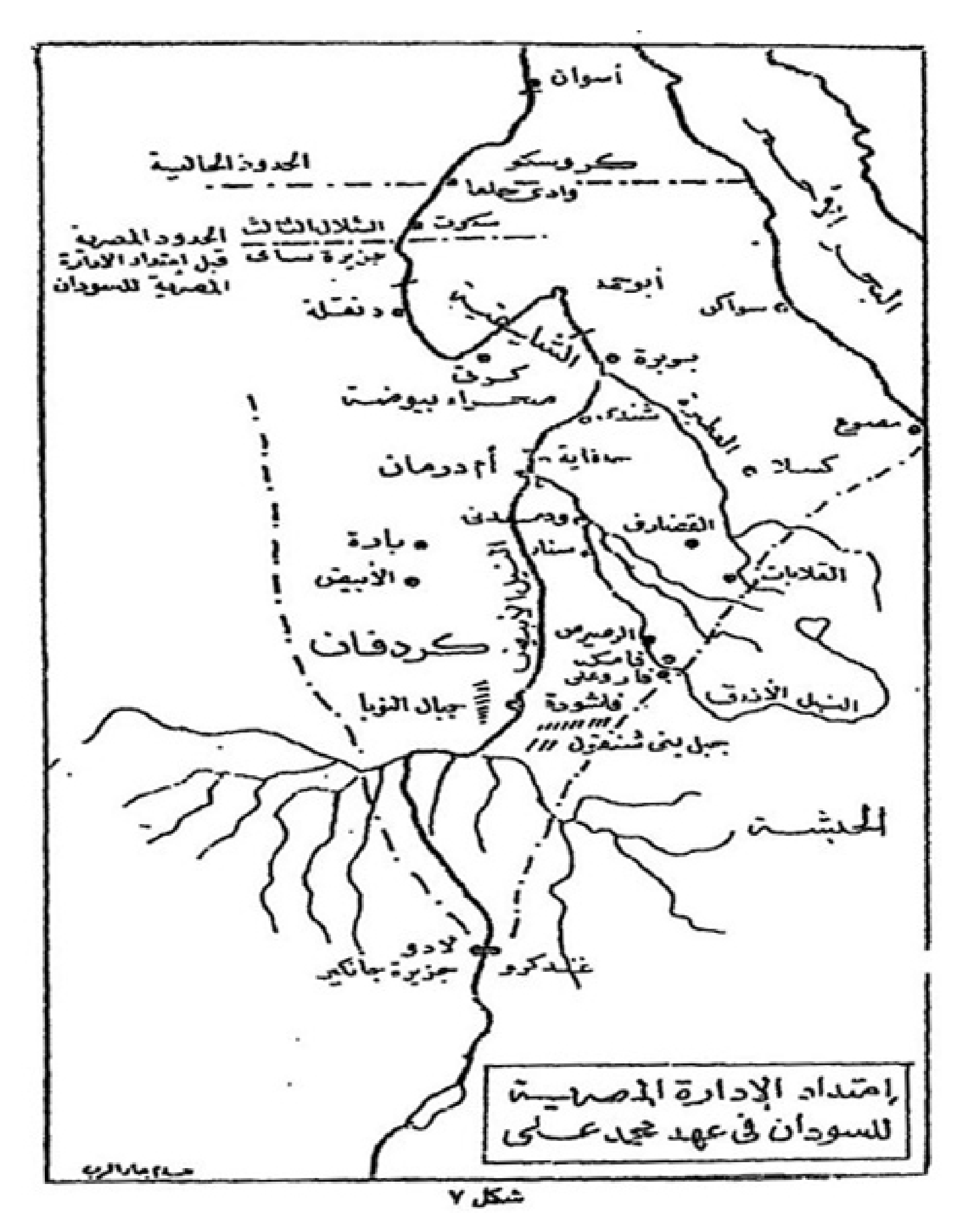
لوحة: (5) البشير ودعقيد



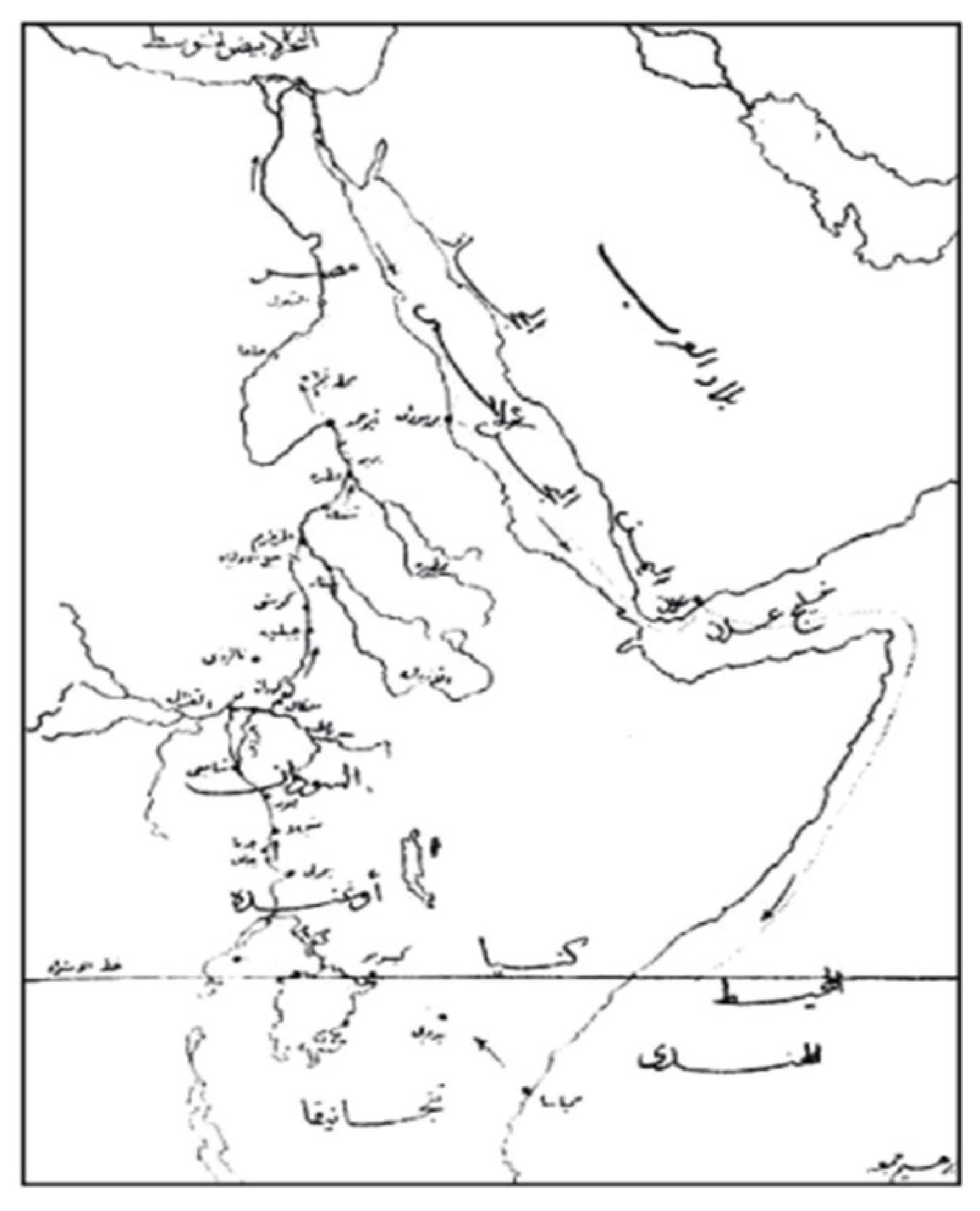
لوحة: (6) ناظلي هانم زوجة محمد بك الدفتردار



خريطة (2) السودان في عهد محمد علي باشا



خريطة (3) توضح حدود السودان في عهد محمد علي باشا



خريطة (4) تبين أهم المدن السودانية في عهد محمد علي باشا وخلفاءه



خريطة (5) تبين الأقاليم السودانية في عهد محمد علي باشا

القارىء الكريم:

سلسلة الدراسات التاريخية هي مجموعة من الدراسات والبحوث العلمية الرصينة الهادفة، عملت دار آريثيريا للنشر والتوزيع على تبنيها والاهتمام بها ونشرها بالشراكة مع مركز بحوث ودراسات حوض البحر الأحمر.. خدمةً للبحث العلمي في مجال الدراسات والبحوث التاريخيية.

القارئ الكريم:

تثمن دار آريثيريا للنشر والتوزيع المجهودات العلمية لجميع المفكرين والمختصين والباحثين من مختلف الدول العربية وخارجها، وتؤكد بأنها سوف تعمل بكل جد واجتهاد على توسيع قاعدة النشر العلمي وإتاحته عبر الدار وشركائها، لنشر البحوث التي تسهم في رفد المكتبة العربية والعالمية بالجديد المفيد.

القارئ الكريم:

العالم اليوم يؤمن بالعمل الجاد والبحوث العلمية الرصينة ذات المردود الإيجابي على الفرد والمجتمع، ومن خلال هذا المحور نعمل دائما - بحول الله تعالى - كي تكون الدار منبراً علمياً يشار إليه بالبنان. بإذنه تعالى.

